مفهوم العبث عند إميل سيوران

أ.م.د. دعاء محمد عبد النظير حماد

أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة المساعد

بقسم الفلسفة . كلية الآداب . جامعة الإسكندرية

الملخص باللغة العربية:

تتمحور فلسفة إميل سيوران حول الإحساس بعدم جدوى الولادة، ومنه تتوالد وتتناسل جل أفكاره ابتداءً من ذلك الشعور الحاد بخسارة اللاوجود، وهي خسارة فادحة غير قابلة للتعويض، بل رسوب نهائي في امتحان الكينونة، لا يمكن استدراكه، ومرورًا بمعاناة الضجر ووعي العدم، وصولاً إلى وسواس الانتحار والذهاب إلى محاولة إعادة مصداقية فلسفية مفقودة للانتحار، مع ضرورة رفضه، مع التأكيد على أن الحياة عبث لا معنى لها ولا هدف.

يعتبر سيوران قدرة الناس على الاستمرار في زيف الحياة بطولة عظمى. أن تستمر في العيش هو فعل احتجاج ضد الحقيقة. يقول بكلمة واحدة: "إن الحياة غير قابلة للتحمل"، ولا ملاذ لنا فينا سوى تحت ظلال الفنون، ولذا فالولادة انحدار إلى ما تحت الزمن، هي ثقل حمله سيوران كألم فلسفي مركزي طوال حياته، ألم مكتوب حدد نظرته إلى الدنيا وما فيها. لقد اختار سيوران الابتعاد عن زمانه، وسعى إلى تحطيم المعنى من أجل خوض تجربة اللامعنى.

إن من يقرأ سيوران سيكون مدعوًا حتمًا ليعيش تأملاً طويلاً وبهيجًا حول "مساوئ أن يكون المرء قد ولد". لقد تمحور فكره حول فكرة مركزية واحدة "لقد ولدت جزافًا"، تلك هي رسالته الأولى والأخيرة لبني نوعه. كل شيء يدور حول هذه الهزيمة، ينطلق منها وإليها يعود، فكأنه مخدر بالتحسر على سقوطه في جسده، ويعتبر نفسه في إقامة جبرية على الأرض. لم يكف عن اجترار نفس القضايا، ولكنه كان في كل مرة يخرج ما يكتب في نكهة متجددة دائمًا، يكررها ويطورها ويعيد صياغتها في قالب يتلاءم مع سيكولوجية اللحظة المعيشة وما تمليه عليه،

بحيث لنا أن نختار أي فكرة نشاء، لنبدأ من حيث نشاء، فليس هناك تقدم في كتاباته، حيث يحتوي أول كتبه، ضمنًا، على كل ما قاله لاحقًا.

الكلمات المفتاحية:

العبث – الكينونة – اللاكينونة – السقوط في الزمن – الألم – الوعي – الشذرات – الموت – الحياة – القلق – الطيش – القرف – العزلة – الكابوس – الشر – الخلاص – انحطاط التاريخ – القداسة – الخواء – الخيبة – انحطاط الكائن – الموسيقى – الشعر.

Abstract

Emil Cioran's philosophy revolves around the sense of the futility of birth, and from it most of his ideas are born and reproduced, starting with that acute feeling of loss of non-existence, which is a huge loss that cannot be compensated for, but rather a final failure in the test of being, which cannot be recovered, and passing through the suffering of Boredom and the awareness of nothingness, arriving at the obsession with suicide and going to try to restore the lost philosophical credibility of suicide, with the necessity of rejecting it, while emphasizing that life is futile, meaningless and without purpose. Cioran considers people's ability to continue in the falseness of life a great heroism. To continue living is an act of protest against the truth. He says in one word: "Life is unbearable", and we have no refuge in us except under the shadows of the arts, and therefore birth is a descent below time, it is a burden that Cioran carried as a central philosophical pain throughout his life, a written pain that determined his view of the world and what is in it. Cioran chose to distance himself from his time, and sought to destroy meaning in order to experience meaninglessness. Anyone who reads Cioran will inevitably be invited to live a long and joyful meditation on "the disadvantages of being born". His thought revolved around one central idea: "I was born in vain", which is his first and last message to his kind. Everything revolves around this defeat, from which he starts and to which he returns, as if he is drugged by regretting his fall in his body, and considers himself under house arrest on earth. He did not stop ruminating on the same issues, but each time he produced what he wrote with an ever-renewing flavour, repeating it, developing it and reformulating it in a form that suits the psychology of the living moment and what it dictates to him, so that we can choose any idea we want, to start from where we want, for there is no progress in his writings, as his first book contains, implicitly, everything he said later.

Keywords: Absurdity – Being – Non-being – Falling into time – Pain – Consciousness – Fragments – Death – Life – Anxiety – Recklessness – Disgust

– Isolation – Nightmare – Evil – Salvation – Decline of History – Holiness – Emptiness – Disappointment – Decline of Being – Music – Poetry.

المقدمة:

تتمحور فلسفة إميل سيوران حول الإحساس بعدم جدوى الولادة، ومنه تتوالد وتتناسل جل أفكاره ابتداءً من ذلك الشعور الحاد بخسارة اللاوجود، وهي خسارة فادحة غير قابلة للتعويض، بل رسوب نهائي في امتحان الكينونة، لا يمكن استدراكه، ومرورًا بمعاناة الضجر ووعي العدم، وصولاً إلى وسواس الانتحار والذهاب إلى محاولة إعادة مصداقية فلسفية مفقودة للانتحار، مع ضرورة رفضه، مع التأكيد على أن الحياة عبث لا معنى لها ولا هدف.

يعتبر سيوران قدرة الناس على الاستمرار في زيف الحياة بطولة عظمى. أن تستمر في العيش هو فعل احتجاج ضد الحقيقة. يقول بكلمة واحدة: "إن الحياة غير قابلة للتحمل"، ولا ملاذ لنا فينا سوى تحت ظلال الفنون، ولذا فالولادة انحدار إلى ما تحت الزمن، هي ثقل حمله سيوران كألم فلسفي مركزي طوال حياته، ألم مكتوب حدد نظرته إلى الدنيا وما فيها. لقد اختار سيوران الابتعاد عن زمانه، وسعى إلى تحطيم المعنى من أجل خوض تجربة اللامعنى.

إن من يقرأ سيوران سيكون مدعوًا حتمًا ليعيش تأملاً طويلاً وبهيجًا حول "مساوئ أن يكون المرء قد ولد". لقد تمحور فكره حول فكرة مركزية واحدة "لقد ولدت جزافًا"، تلك هي رسالته الأولى والأخيرة لبني نوعه. كل شيء يدور حول هذه الهزيمة، ينطلق منها وإليها يعود، فكأنه مخدر بالتحسر على سقوطه في جسده، ويعتبر نفسه في إقامة جبرية على الأرض. لم يكف عن اجترار نفس القضايا، ولكنه كان في كل مرة يخرج ما يكتب في نكهة متجددة دائمًا، يكررها ويطورها ويعيد صياغتها في قالب يتلاءم مع سيكولوجية اللحظة المعيشة وما تمليه عليه، بحيث لنا أن نختار أي فكرة نشاء، لنبدأ من حيث نشاء، فليس هناك تقدم في كتاباته، حيث يحتوي أول كتبه، ضمنًا، على كل ما قاله لاحقًا.

فقد جاءت "الكتابة" عند سيوران في صورة شذرات للتحايل على الحياة التي تظهر بالمعنى، والحال أن لا معنى لها على الإطلاق سوى العيش بلا مبالاة، بلا هدف، فالحياة عبث. ويبقى الهاجس هو هو، فكل شيء يدور حول هزيمة التحسر على سقوطه في جسده، ينطلق منها وإليها يعود. فقد كان استهجان الولادة حاضرًا ضمنيًا في كل ما كتب منذ بداية مشواره.

تجدر الإشارة إلى أمر فريد ألا وهو ذلك الارتباط الوثيق بين فلسفة سيوران ومزاجه. لقد تماهى مع كتاباته إلى حد أصبح من الصعب الإمساك بالخيط الذي يربط بين مواقفه التي تبدو متنافرة أحيانًا إلا إذا ألم بحياته الخاصة وسيرته الذاتية. ولذا فإن هذا البحث محاولة لرصد تلك الرحلة المضطربة نحو الذات والعالم بغية الاستمتاع بمحاورة متقطعة ومستمرة في آن بين الأجزاء المتشظية لشخصية من أقلق الشخصيات التي عرفها القرن العشرون وأندرها.

يدور البحث حول مفهوم العبث عند سيوران، ويظهر العبث جليًا في مقولة سيوران: "هناك أمران مرفوضان: أن نولد ثم أن نموت"، ويعبر سيوران عن قضيته الأساسية مع الوجود قائلاً: لم أتمكن من التلاؤم بشكل كامل لا مع الوجود، ولا مع الآخرين، ولاسيما مع نفسي. فالشر كل الشر ليس أن نفنى، وإنما في أن نكون، ومن ثم فإن هذا الوجود عبث، لا معنى له، ولا غاية ، أما الآخرون فلماذا يكون لهم مبرر الموت وهم لا يملكون مبرر الحياة! إن الفيلسوف لعلى يقين أنه ولد هكذا صدفة في عالم لا يوليه أدنى اكتراث. ومع هذا يرفض سيوران الانتحار، ففي التخلص من الحياة حرمان من سعادة السخرية منها.

تبقى الحياة كما عهدها في شبابه غير ممكنة وغير معقولة، ليس لها معنى ولن يكون لها معنى أبدًا. وهذا هو مفهوم العبث عند سيوران. إنه يعلن عجز الفلسفة وعدم جدواها في عقد مصالحة بينه وبين الوجود. وكون الحياة بدون معنى هو السبب الوحيد الذي يجعلنا نتحملها. فماذا عسايَّ أن آمل، لا شيء سوى

العبث، دون هدف، فالعبث هو البحث عن النجاة، وهو فشل معلن من لاجدوى مسعانا في الوجود. أليس من العبث أن يعود فيلسوف إلى أمر واقع لا يمكن أن يفعل حياله شيئًا. ولذا فالأمل عذاب لا يُطاق، واليأس نعيم عظيم. فالإنسان يتمتع حتى بمباهج المرارة. ولذا يقول سيوران إن اليائس من خلاصه يصير عالِم جمال. فأن تكون آدميًا يعني أنك مضطر لتدشين عالمك الخاص، عابثًا بالفلسفة النسقية والفكر الصارم، آخذًا من الشعر والموسيقى جوهرهما المشترك من الومضة والإشراق، كما أن فكر سيوران يحافظ على مذاق من الدم واللحم.

أما الإله، فليس من وجود لإله مطلق عند سيوران، الإله سقوط متعامد على هلعنا، مما يدمر الروح والعقل والجسد والقيم والوجدان، لقد أصبح المسيح مادة بعد أن كان رمزًا. ثم يعود سيوران لقضيته الأساسية مردفًا: أريد أن نندب حظ البشر عند ولادتهم، لا في مماتهم، وحتمًا يبارك سيوران تلك الصرخة في أكثر أفكاره ذيوعًا وأهمية على النحو التالي: العبث – الطيش – القرف – الألم باعتباره جوهر الزمن – العزلة التي لا تعلم كيف يمكن أن تكون وحيدًا، بل كيف تكون المتفرد – القلق – الكابوس – الذات – السهاد – انحطاط التاريخ – الشر – الخلاص – القداسة – الخواء – الخيبة – انحطاط الكائن – مصادر التدمير الذاتي – العدمية، ولكنهاعدمية لا تقيم أخلاقًا أخرى. تلك هي باختصار مكونات العمود الفقري لتأملات سيوران.

إشكالية البحث:

تكمن إشكالية البحث في جدل الحياة والموت عند سيوران، فأكثر ما يشغل سيوران هو ذلك الجدل في إطار مفهوم العبث لكون الحياة لا معنى لها. إن سيوران يحب الحياة، ويقول: لا أحد يستطيع أن يحب الحياة مثلي، وأن يحس في وقت واحد، وبطريقة متقطعة إحساسًا بعدم الانتماء وبالمنفى. أشعر أنني خارج كل شيء، خارج ما ندعوه كل شيء. ومن ثم فإن كل سر الحياة يمكن اختزاله في هذا:

إن الحياة لا معنى لها، ورغم ذلك فكل واحد منا يجد لها معنى ما، أليس الألم في حقيقته جوهر الزمن، وما يزيد ألمنا هو الوعي بعبث الحياة.

ولذا فإن إشكالية سيوران نفسه هو أنه يبحث عن الحياة في الموت، وليس له من هدف أخير غير اكتشافها باعتبارها ليست حياة. "ولو كانت الجثة الإلهية أكثر حياة، لكنت ألقيت بنفسي بين ذراعيها من زمان". هكذا يقول سيوران. ويمكن القول أيضًا إن فلسفة سيوران فلسفة للموت، والإنسان هو الطريق الأقصر بين الحياة والموت.

إن إشكالية سيوران أيضًا هي أن الواقع حنين إلى مطلق مستحيل المنال، حنين ما قبل النشأة. إن سيوران فيلسوف المستحيل بامتياز، اكتفى بالإنصات إلى هذه الروح الفلسفية المحكوم عليها بمقارعة المستحيل. ولذا يعد سيوران من أكثر الفلاسفة تجذرًا في الكتابة المأساوية، حتى أننا لنجد أنفسنا أمام فكر عصي على التلخيص أو النمذجة أو التبسيط.

بقي الاستغراب حيال الوجود لب تجربته الحياتية الفلسفية. "أليس كل تجربة ميتافيزيقية استفهامًا لا يهدأ حول أصل الكائن ومصيره؟ ويمكن القول إن سيوران فيلسوف مقلوب. ولكن .. ألا يحسن بنا أن نتساءل عن الأسباب التي أدت بصاحبنا إلى أن يكون مفكرًا مقلوبًا: لماذا وعلى نقيض الفلاسفة والمفكرين الآخرين الذين ينحون نحو المستقبل، يعود صاحب "التاريخ واليوتوبيا" إلى بداية المستقبل ذاته، ويتخذ من ولادة الإنسان وتيهه على وجه البسيطة موضوعًا لتأملاته؟ أليس من العبث أن يعود فيلسوف إلى أوامر واقع لا يمكن أن نفعل حياله شيئًا؟ ألا يكون الندم على الولادة من أغرب وأطرف، بل ومن أعقم أشكال الندم في نهاية الأمر؟ ربما لأن سيوران كان دائمًا مقتنعًا بأن مكانه ليس هنا، وأنه ليس بإمكانه أن يتلاءم أبدًا مع دنيا الأرض. ولكن ما البديل؟ لعل البديل في نظره كما يقول: ما أسعد من لم يولدوا أبدًا، يحملني مجرد تخيل نفسي في وضعهم إلى سعادة لا نظير لها، يا

لها من حرية، وما أرحبه من فضاء! كان من الأحسن لي أن أكون كما لو أنني لم أكن. يا ليتني لم أكن أبدًا، عدم الحياة أفضل بكثير من هذه الحياة. فخسارة اللاوجود خسارة فادحة غير قابلة للتعويض.

تساؤلات البحث:

١- كيف تكون الولادة قيدًا عند سيوران؟

٢- ما معنى العبث عند سيوران؟

٣- ما قيمة العزلة؟

٤- ما العلاقة بين الألم والوعي؟

٥- هل فلسفة سيوران فلسفة للموت أم للحياة؟ وهل توصل سيوران لحل جذري واقعي لجدل الحياة والموت؟

٦- ما معنى الأبدية؟

٧- ما الذي تفرد به سيوران؟

٨- ماذا يعني سيوران بالغنوصية؟

٩- كيف يختلف سيوران مع البوذية؟

١٠-ما الذي يجمع بين إميل سيوران ونيتشه؟

١١- هل يؤيد سيوران الانتحار؟

١٢-ما جدوى فلسفة سيوران؟ وما جدوى قراءة كتبه؟

١٣-ماذا يقصد سيوران بالكينونة؟ وما علاقة الكينونة بالموت؟

١٤-ما مفهوم الحرية عند سيوران؟

١٥-ماذا عن مسألة الانتماء عند سيوران؟

١٦-ما معنى السقوط في الزمن؟

منهج البحث:

المنهج التحليلي.

صعوبات البحث:

لقد تناول سيوران كتاباته في صورة شذرات تحكمها الفكرة الأساسية، وهي "مساوئ أن يكون المرء قد ولد"، جاءت الشذرات قصيرة، رغم عمقها، وهذه الشذرات كانت من الصعوبة كي أعثر من خلالها على أفكار سيوران وأتمكن من كتابتها في صورة متسقة وواضحة، ولذا حاولت جاهدة أن أعبر بوضوح عن أفكار سيوران من مؤلفاته كما عبر هو ذاته عنها.

محتويات البحث:

يحتوي البحث على أربعة محاور رئيسة جاءت على النحو التالي:

أولاً: العبث ومساوئ الولادة.

ثانيًا: العبث والسقوط في الزمن.

ثالثًا: الوجود والعبث.

رابعًا: الكتابة عند سيوران.

كما سيحتوي البحث على أهم النتائج، وقائمة بأهم مصادر ومراجع البحث.

أولاً- مساوئ الولادة:

تمهيد: إميل سيوران Emil Cioran(*): النشأة والتحولات:

(*) إميل ميشيل سيوران: هو ذلك الفيلسوف الروماني الذي عاش في الفترة (١٩١١ – ١٩٩٥)، وقد توفى بباريس منفاه الأخير.

انظر: حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، ط١، الجزائر، ٢٠٠٩م، ص ٩.

ولد إميل سيوران في الثامن عشر من إبريل سنة ١٩١١ بقرية رازيناري، إحدى قرى ترانسيلفانيا الرومانية التي كانت وقتها تحت هيمنة نسماوية مجرية، في جو يوفر له روح المفارقة التي طبعت كتاباته فيما بعد. فقد كان والده كاهن الطائفة الأرثوذكسية بالقرية. وكانت أمه لا تخفي سوء ظنها بكل ما يتعلق بالدين واللاهوت. إلا أنه، وعلى الرغم من نشأته بين هذين القطبين المتقابلين، ظل يحمل عن طفولته انطباعًا فردوسيًا، فقد عاش تلك السنوات على إيقاع الطبيعة الهادئة منصتًا إلى حكايات الرعاة[١].

إلا أنه سرعان ما حُرم من فردوسه، وكانت تلك أولى المحن التي تركت في نفسه، وفي كتابته فيما بعد أثرًا لا يمحى. فقد اضطر إلى الرحيل إلى سيبيو سنة ١٩٢١، تلك المدينة الكبيرة المجاورة، حيث يتجاور الرومانيون والمجريون والألمان، وحيث المعهد الثانوي، وحيث أصبح والده رئيس كنيسة، ومن ثم عاش سيوران بذلك لحظة اقتلاع جذور بأتم معنى الكلمة، لم تغادر بصماتها بعد ذلك طيلة حياته. هناك واجه معنى التحول الأول، أو بالأحرى، الانسلاخ الأول، حيث فقدان الطفولة بشكل قاسٍ ونهائي، الانسلاخ من كيان إلى كيان. ولم يخفف من وطأة ذلك أنه أحب مدينته الجديدة وتعلق بمعمارها القروسطي، وألِف سكانها القادمين من كل مكان[٢].

بعد ذلك عاش سيوران محنته الثانية، أو انسلاخه الثاني، ذلك الجرح الثاني الذي لن يلتئم، والذي سيحدد مجرى حياته كإنسان وككاتب. تم ذلك وهو على مشارف العشرين من عمره. كان في عمر لا يسمح بالعيش بين أبوين مختلفين كأبويه دون توتر. وإذا كان الأب قادرًا على امتصاص جموح المراهق لدى ابنه،

---

[١] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ترجمة: آدم فتحي، منشورات الجمل، كولونيا – ألمانيا، ٢٠٠٣م، ص ٨.

[٢] المصدر نفسه، ص ص ٨، ٩.

فإن الأم كانت شديدة الحساسية عصبية المزاج قادرة على التفوه بما يدمي الروح. وذلك ما تم فعلاً، مما جعله يشعر بالانسلاخ الثالث[١].

وهذا التحول الثالث أو الانسلاخ الثالث، كان انسلاخًا من الطمأنينة، طمأنينة النفس، ذات اليقين الخفي، بأنه لم يوجد عبثًا. فبعد انتقاله إلى سيبيو بسبع سنوات اضطر إلى الرحيل إلى بوخاريست لدراسة الفلسفة، وكان ذلك تعميقًا لجرح المنفى والانبتات. هناك عاش المنعطف الثالث الذي حفر فيه عميقًا وجعل حياته تأخذ مجراها الغريب المنفرد. هناك عرف سيوران أعراض المرض الذي سيصاحبه إلى النهاية، والذي سيغير نظرته إلى كل شيء: مرض الأرق، فقدان نعمة النوم. إلا أنه سرعان ما وجد العمل بنصيحة نيتشه Friedrich Nietzsche (١٨٤٤ – ١٩٠٠): تحويل ليالي الأرق الطويلة إلى وسيلة للمعرفة: "ألا نتعلم في ليلة بيضاء واحدة ما قد لا نتعلمه في سنة كاملة من النوم؟"[٢].

بعد مدينة سيبيو انتقل سيوران إلى برلين حيث أقام فترة للدراسة، ثم فرغ إلى تدريس الفلسفة بمعهد براسوف بين سنتي ١٩٣٦، ١٩٣٧. كان قد نشر العديد من المقالات في مجالات مختلفة، وظهر كتابه الثاني باللغة الرومانية أيضًا "كتاب الخدع" وسرعان ما اعتبره الكثيرون أحد الوجوه الواعدة في الأدب الروماني الشاب إلى جانب يونسكو وسياد إلياد. إلا أنه في نهاية سنة ١٩٣٧ وقبل أسابيع من صدور كتابه الثالث بالرومانية "دموع وقديسون" تحصل على منحة من معهد بوخاريست الفرنسي لإعداد أطروحة في الفلسفة بباريس، فارتحل على الفور. هناك تخلى عن كل شيء. والتيه في الشوارع والتجوال على متن دراجة في الأرياف

[١] المصدر نفسه، ص ص ١٠، ١١.

[٢] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ١١، ١٢.

الفرنسية، مواصلاً التأليف بالرومانية. وأثمر ذلك كتابه الرابع والأخير في لغته الأم "غروب الأفكار" الذي نشره سنة ١٩٣٨[١].

كان عليه الخروج من لغة إلى لغة أي من هوية إلى هوية، مع ما يعني ذلك من إحساس بالغربة والتمزق لن يفارقه مدى الحياة. يقول سيوران إنه قرر التحول إلى الكتابة باللغة الفرنسية أثناء محاولته ترجمة مالارميه إلى الرومانية. إلا أن متابعي سيرة حياته لا يستبعدون تدخل عوامل أخرى، لعل من بينها ذلك الدرس الذي حضره بالكوليدج دي فرانس، والذي شاهد خلاله أستاذ رياضيات يقوم ببرهنة رياضية دون أن يحتاج إلى التفوه بكلمة. هذا التحول، هذا الانسلاخ اللغوي، وهو الانسلاخ الرابع، كان في أهمية تخلي نابوكوف عن الروسية لفائدة الفرنسية. من ثم تحول سيوران في كتاباته الفرنسية التي تجمع بين الحكمة والهذيان، بين الهذيان الصوفي وسخرية الوعاظ الكلاسيكيين[٢].

أ- مساوئ أن يكون الإنسان قد ولد[*]:

---

[١] المصدر نفسه، ص ص ١٣، ١٤.

[٢] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ١٤، ١٥.

[*] يعد كتاب "مساوئ أن يكون المرء قد ولد"، والذي يترجم أحيانًا بـ "مثالب الولادة" أقرب كتب سيوران إلى نفسه. وليس من الضروري قراءة الكتاب كله، لأن آراء سيوران لم تتغير من أول كتاب له، وحتى آخر كتبه، والفكرة الأساسية منذ البداية هي رفضه لمسألة الولادة، واستياءه وسخطه على الحياة والموت معًا. إذ يرى سيوران أن الحياة عبث (لا معنى لها)، وبناء على فلسفته تلك يبلور كل آرائه التي لم تتغير طوال حياته. لقد كان استهجان الولادة حاضرًا ضمنيًا في كل ما كتب سيوران، وسرعان ما يظهر بكل وضوح وقوة في أول كتبه المدونة باللغة الفرنسية، والذي كان تحت عنوان مثير هو "موجز العفن" والصادر في باريس سنة ١٩٤٩، ثم يصبح نقده للولادة هاجسًا مركزيًا في "مساوئ أن يكون المرء قد ولد"، المنشور سنة ١٩٧٣، والذي قدمه إلى ناشره على أنه سلة مهملات من المزح والصيحات المرعوبة بعد كتابه "على ذرى اليأس"، والذي يترجم أحيانًا بـ "على مرتفعات اليأس" ، "كتاب الأوهام"، "دموع وقديسون"،

عندما علمت بمولدي فقدت كل شيء. هكذا عبر سيوران عن سخطه بمولده، لاسيما وأنه قال: "ما أسعدني لو لم أجيء للدهر يومًا ولم أرحل ولم أكن". ومن هنا فإن سيوران يرى أن مأساة الإنسان ليست في موته وإنما في ولادته، ذلك هو بيت القصيد. يبدو سيوران متأكدًا بأننا وجدنا لئلا نولد أصلاً. وهنا يكمن إشكال الوضع البشري حسب مؤلف "مساوئ أن يكون الإنسان قد ولد"، في استحالة العودة إلى الطمأنينة الأولى والغطس ثم الذوبان من جديد في نعيم اللاوجود العذب الذي كنا نتمتع فيه قبل أن نولد، قبل أن نتفردن. لقد رُمي الإنسان في جسد وترك يتيمًا[١].

وفيما يلي من أفكار سنرى كيف يلعن سيوران سقوطه في جسم، وهو ما يسميه بـ "السقوط في الزمن" أي السقوط في هذه الحياة في صورة جسم، مما جعله يتألم طيلة حياته جراء هذا الوجود، وكما عبر سيوران "لعن الله الجسم الذي وهبني الحياة". وهذا السقوط في الحياة أو الزمن يعبر عنه سيوران في كتابه "المياه كلها بلون الغرق"، وهو في هذا الكتاب لم يكتفِ بلعن ذلك اليوم النحس الذي سقط فيه إلى هذا العالم، بل أغرق أيامه كلها في بحر من الشتم والسباب.

ليس من برهان على ما بلغته البشرية من تقهقر، أفضل من استحالة أن نعثر على شعب واحد، أو قبيلة واحدة، ما زالت الولادة قادرة على أن تثير فيها الحداد والمناحات. إن نمطًا خاصًا من اليقظة هو الذي يؤدي إلى وضع الولادة

ومرورًا بـ "غسق الأفكار"، "القياسات المنطقية للمرارة"، وحتى "إغواء الوجود"، و"السقوط في الزمن".

انظر: إميل سيوران، لو كان آدم سعيدًا، ترجمة وتقديم: محمد علي اليوسفي، وقفية الأمير غازي للفكر القرآني، ١٩٩٧م، ص ١٠.

وكذلك: حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ١٩.

[١] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ٩.

موضع التساؤل. فمنذ وجدت، أي سيوران، هذه الـ منذ مشحونة بدلالة مرعبة إلى حد يجعلها لا تطاق[١].

إن الواقع من اختصاص اللامعقول. تستحق معرفة كهذه أن تُنسب إلى ما بعد الموت: إنها تجري كأن العارف حي وغير حي، كائن وذكرى كائن. "لقد بات جزءًا من الماضي". هكذا يقول في شأن كل ما ينجزه، وتحديدًا لحظة الفعل، الذي يُحرم وإلى الأبد من الحاضر. فنحن لا نركض نحو الموت، نحن نفر من كارثة الولادة، ونتخبط مثل ناجين يحاولون نسيانها. ليس الخوف من الموت سوى إسقاط على المستقبل لخوف قادم من لحظتنا الأولى. وقبل الشيخوخة والموت أعتبر واقعة الولادة مصدرًا لكل العاهات وكل الكوارث[٢].

لقد كان سيوران مقتنعًا بأن مولده مصادفة، ولكنها مصادفة سخيفة.

إن اللافعل، اللاخَلْق، هي المهمة الوحيدة التي في وسع الإنسان أن يرغم عليها نفسه، إذا كان يطمح، كما هو بيِّن في كل شيء، إلى أن يتميز عن الخالق. إنني أعلم، "أي سيوران"، أن ولادتي مصادفة، حادثة مضحكة، وعلى الرغم من ذلك فإني ما أن أنسى نفسي حتى أتصرف وكأنها واقعة رئيسية ضرورية لمسيرة العامل وتوازنه وكل ما يقف عن إثارة شفقتنا يفقد الاعتبار ويصبح غير موجود. عندئذٍ ندرك لماذا يكف ماضينا بسرعة عن الانتماء إلينا، ليتخذ صورة تاريخ، صورة شيء لا يعني أحدًا[٣].

يقول سيوران: آه! لو ولدنا قبل الإنسان! "نوستالجيا/ حنين إلى زمن ما قبل الزمن" حتى نتفادى كارثة الولادة. إذن فالشر خلفنا وليس أمامنا. إن التراجيديا

---

[١] إميل سيوران: مثالب الولادة، ترجمة: آدم فتحي، منشورات الجمل، بغداد، ٢٠١٥م، ص ص ٧-٩.

[٢] إميل سيوران: مثالب الولادة، ص ٨.

[٣] المصدر نفسه، ص ص ١٠، ١١.

الحقيقية للإنسان هي في استحالة العودة إلى زمن الماضي وبلوغ عدم ما قبل الوعي[١]. كما يرى سيوران أن كابوس الولادة، حين ينقلنا إلى ما قبل ماضينا، يجعلنا نفقد الرغبة في المستقبل، والحاضر والماضي أيضًا بمجرد التفكير في ألا أكون ولدت، أي سعادة، أي حرية، أي مدى! [٢].

وفي مقابلة مرارة الحياة، يتحدث سيوران عن الضحك على أنه المبرر الكبير للحياة: وعليَّ القول إنني، أي سيوران، حتى في أعمق لحظات اليأس والمرارة، كنت قادرًا على الضحك[٣]. ضحكنا فكان الضحك سفاهة، وحُق لسكان البرية أن يبكوا، لأن الأيام تكسرنا في كل لحظة[٤]. هكذا كانت حقيقة الحياة في نظر سيوران، ولا يخفف من وطأتها إلا الدموع.

أن نكتب أو نضحك، تلك ربما هي أمثل طريقة كي لا نندم على ولادتنا، كي لا نجد هذه الحياة مملة طويلة، ولكي نقف صامدين أمام فضيحة الحياة. وربما لا سعاده خارج الكتابة. فهل يمكن أن يكون الضحك خلاصنا؟ الأجمل أن سيوران يعلمنا كيف نضجر بمرح. إلى جانب ما يمكن نعته تشاؤمًا أسود في كل كتبه، نعثر على مرح غريب، بهجة لا يمكن تفسيرها، ولكنها مسلية، بل منعشة. فمع سيوران نجد متعة نادرة، وهي تلك التي نتمتع فيها بأفكار لا نتفق معها على الإطلاق. فكل كتاب جيد ضد الحياة هو حث على العيش، ويمكن أن نضيف أن كل كتابة ضد الحياة قمينة بأن تصبح تسييرًا مسالمًا للعبث[٥].

ب- جدل الحياة والموت (اللاكينونة):

---

[١] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ٧.

[٢] إميل سيوران: مثالب الولادة، ص ١٥.

[٣] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ١١.

[٤] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ٢٣.

[٥] المرجع نفسه، ص ص ٦٨، ٦٩.

هناك أمران مرفوضان: أن نولد ثم أن نموت، ويضيف سيوران: إن الوضوح الوجودي غير مقبول بالمرة، فلم أتمكن من التلاؤم بشكل كامل لا مع الوجود، ولا مع الآخرين، ولاسيما مع نفسي. فأعظم سعادة بالنسبة للإنسان هي ألا يولد. وإن ولد فإن أعظم سعادة هي أن يموت في أسرع وقت ممكن. في اللاولادة سعادة، وفي الإقامة الأرضية عقاب للبشر لا غير. والأمثل لنا أن نتراجع عن الولادة. لا بل من الأحسن، كما تمنى سيوران يومًا، أن نولد شيوخًا، ثم نصغر فنصغر حتى ننتهي أطفالاً! هل يمكن أن يكون فيلسوفًا حقيقيًا من لم يمضِ كل حياته متأملاً الموت؟[١].

يعبر سيوران عن الحياة بطريقة خاصة في شذراته: كل تناقضات تأتي مما يلي: لا أحد يستطيع أن يحب الحياة مثلي، وأن يُحس في وقت واحد وبطريقة متقطعة تقريبًا، إحساسًا بعدم الانتماء وبالنفي والتخلي. أنا مثل إنسان أكول يفقد شهية الأكل بسبب طول تفكيره في الجوع. وعجزي عن العيش لا يضاهيه إلا عجزي عن الكسب المادي. المال لا يناسبني. بلغت سن السابعة والأربعين من دون التوصل إلى الحصول على دخل مادي. لذلك لا أستطيع التفكير في ما له علاقة بالمال. أما أنني أشعر بالغثيان والهلع من كل ما أنتجته العبقرية التقنية، كما يصيبني الرعب بالغثيان والهلع من رموز العالم الحديث مثل الهاتف، السيارة، أو أية آلة بسيطة. فمنذ خمسة وعشرين عامًا وأنا أعيش في الفنادق. وهذا امتياز: ما من استقرار في أي مكان. وهكذا لا يتمسك المرء بشيء. ويعيش حياة عابر سبيل. إنه شعور دائم بالرحيل الموشك، إدراك لواقع انتقالي إلى أقصى حد. كما أشعر أنني خارج ما ندعوه كل شيء[٢].

يرى سيوران الحياة مرضًا ميتافيزيقيًا، كما أن المريض الميتافيزيقي يتحمل الحياة رغم أنفه، لأن المرض منفذ لا إرادي إلى ذواتنا، يجبرنا على التوغل في

---

[١] المرجع نفسه، ص ص ٢١، ٢٢.

[٢] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ص ٤١، ٤٢.

أعماقنا. ونحن في الصباح وإلى المساء لا نصنع إلا الماضي[١]. فنحن نشعر بالحياة تفلت منا عند أقاصيها، وأن الذاتية ليست سوى وهم، وأن هناك قوى أخرى لا يمكننا التحكم فيها تغلي بداخلنا مدمرة كل إيقاع منضبط. نموت من كل ما هو موجود وما هو غير موجود. يصبح عندئذٍ كل ما عشناه قفزة في العدم. لن يهم إن متنا بالعزلة، باليأس أو بالحب، قبضة الانفعالات لن تفعل سوى إطالة هذا الإحساس بالموكب الجنائزي، بعدم استطاعة الحياة إثر دوخات من هذا القبيل. كل هذا يأتي نتيجة هزال داخلي صرف[٢].

إن الحياة محدودة جدًا، مجزأة جدًا، لكي نستطيع مقاومة توترات هائلة. ألم تمتلك كل أشكال التصوف إثر نشوى عظيمة بعدم استطاعة الحياة؟ فما الذي يمكن أن ينتظره من هذا العالم أولئك الذين يشعرون ما بعد المعتاد، ما بعد الحياة، ما بعد العزلة، ما بعد اليأس والموت[٣].

كان سيوران يعتبر نفسه في حالة إقامة جبرية على الأرض. [إذا كانت النفوس كبارًا تعتب في مرادها الأجسام]. إن سيوران يوجه الضربة الكلامية القاضية للحياة عمومًا: كنت فيما مضى أتساءل أمام الموتى عما جنوه من ولادتهم؟ نفس التساؤل ينتابني اليوم أمام كل الأحياء. فما أسعد من لم يولدوا أبدًا. يحملني مجرد تخيل نفسي في وضعهم إلى سعادة لا نظير لها، يا لها من حرية وما أرحبه من فضاء! كان من الأحسن لي أن أكون كما لو أنني لو أكن. يا ليتني لم أكن أبدًا، عدم الحياة أفضل بكثير من هذه الحياة[٤].

---

[١] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ٧٢.

[٢] إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، ترجمة: عبد الوهاب ملوح، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٠م، ص ١٦.

[٣] إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، ص ص ١٦، ١٧.

[٤] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ٢٠.

لم يكتف سيوران بلعن ذلك اليوم النحس الذي سقط فيه إلى هذا العالم، بل أغرق أيامه كلها في بحر من الشتم والسباب، حيث تعد الولادة في نظر عدوها اللدود "سيوران" كارثة، "صدمة غير سارة". وهي خضوع واستسلام، بل " نكبة". إنه سقوط حر في ورطة لا خروج منها أبدًا. ولا يبقى الأمر مجرد وجهة نظر فحسب عند سيوران، بل يترجم غضبه بعدم الإنجاب: يمكن أن أقترف أي جرم ما عدا أن أكون أبًا. فهل يُقدِّر الأطفال الذين لم أرتكب إنجابهم مدى السعادة التي يدينون لي بها؟ حيث يعتقد سيوران أن إقامة إمبراطورية يكون أسهل بكثير من تكوين أسرة. إنه الشطط بعينه أن يولد الإنسان ويلد بدوره، أن يرث ويورث الزلل. فما الحياة إلا الهوس متجسدًا، فلماذا المساهمة في هذا المسخ؟ وصل سيوران بهجومه على الحياة إلى مداه الأقصى، فالولادة والحبس صنوان، تبصر النور فترى القيود[١].

وهنا نجد عند سيوران ازدواجية عشق الحياة، مع رفضها، وتحملها رغم قسوتها. وهنا تتضح معالم جدل الحياة والموت.

وعلى ذلك فإن فلسفة سيوران تدور حول رفض العالم، ولذا فثمة فظاظة قادرة على جعلنا نسلم بأي شيء في العالم، لكنها ليست قوية بما يكفي كي تجعلنا نسلم بالعالم نفسه. هكذا نستطيع أن نتحمل أمراض الحياة. هناك في القبول بالكينونة ضرب من النذالة لا ننجو منه إلا بفضل مكابرتنا وندمنا، وخاصة بفضل الكآبة التي تحفظنا من الانزلاق نحو الإثبات النهائي المنتزع من جُبننا. هل هناك ما هو أحقر من أن نقول نعم للعالم؟ وعلى الرغم من ذلك ترانا لا نكف عن مضاعفة هذا القبول، هذا القول الدنيء المكروه، هذا التعهد بالوفاء للحياة الذي لا ينكره إلا كل ما يرفض الفظاظة الكامنة فينا[٢].

---

[١] المرجع نفسه، ص ص ٢١، ٢٤، ٢٥.

[٢] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ترجمة: آدم فتحي، منشورات الجمل، ط٢، بيروت – بغداد، ٢٠٢١م، ص ص ١٠٤، ١٠٥.

كما لو أن سيوران يدعو للتمرد على الكينونة، فمع الموت تصبح الكينونة عبثًا، فالكون كله عبث عند سيوران، أي لا معنى له. وخيانة الكينونة، هي قول نعم للعالم، وهذه الكينونة هي فراغ العالم من المعنى، ومن هنا يمكن أن نطلق عليها اللاكينونة. فالكينونة هي اللاكينونة.

ففي وسعنا أن نحيا كما يحيا الآخرون، مخفين في الوقت نفسه "لا" أكبر من العالم. ذلك هو سرمد الكآبة... إذ ليس من شيء داخل الإنسان أكثر كينونة وصدقًا من فظاظته الخاصة، منبع كل ما هو حي بشكل أولي. إلا أننا من ناحية أخرى نزاد حقارة بقدر ما يتوطد وضعنا في الحياة (قاعنا القذر ومرارتنا الحالمة)[١].

تتمثل كل كينونة في دمارها الخاص. الجمال نفسه ليس سوى الموت يتبختر في البراعم. وهنا يتلخص موقف سيوران من العبث والكآبة والتعاسة كما يلي: لم أعرف حياة "جديدة" إلا كانت وهمية وفاسدة الجذور. لقد رأيت كل بشر يتقدم في الزمن كي ينعزل في اجترار وقلق، ساقطًا في نفسه من جديد، وليس له من أمارات التجدد إلا التكشيرة المفاجئة والعبث المباغت لآماله الشخصية. ولذا فإن الحياة بالنسبة لسيوران، مأزق ثلاثي حيث يكتشف العقل الهوية والروح السأم والجسد الكسل. إنه مبدأ الثبات نفسه معبرًا عنه بطرق مختلفة وفق أشكال التناوب الكوني الثلاثي[٢].

يصاب كل منا بالكينونة فيتحمل تبعاتها مثل الدابة. هكذا تتضخم الكراهية في عالم ليس فيه إلا ما يُكره، فإذا هي أوسع من العالم، وتتجاوز موضوعها، فإذا هي تلغي نفسها[٣].

---

[١] المصدر نفسه، ص ١٠٥.

[٢] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١٢٠.

[٣] المصدر نفسه، ص ١٣١.

فالحياة بالنسبة إلى الذهن ليست سوى حركة انسحاب. والحياة لنا بالمرصاد، بينما نعتقد أننا بمنأى عنه. وحين تأتي علاقاتنا، في اللحظة التي نكون قد نسيناها، نكتشف في همساتها أن المطلق ليس سوى اللاشيء، باعتباره المرحلة الأخيرة من المعرفة. نتراجع وقتها، لأنها كما سبق القول ليست سوى حركة انسحاب، فلم يعد من الممكن أن نحيا إلا بترصد الحياة في كل مكان، لإنقاذها من خطر أن تصبح غريبة. هكذا ننفي أنفسنا من الموت لنتذوق الحياة في طريقتها المثيرة للشفقة. والإنسان هو الطريق الأقصر بين الحياة والموت[١].

إن الخطر هو الواقع الوحيد، ولذا علينا أن نواجهه بشجاعة، بل أن نبحث عنه. وربما كان القرف الهادئ هو ما يجعل الإنسان يستسلم له أحيانًا. كما أن الافتقار إلى المرارة اللامبالية هو الذي يصنع من البشر دواب طائفية. فلا يرتكب أصغر الجرائم وأكبرها إلا أولئك الذين يأخذون الأمور على محمل الجد. وحده اللامبالي ليس ولوعًا بالدم، وحده ليس مجرمًا. وهذا الجنون الذي لا طعم له، وإرادة في الوجود، هي في الوقت نفسه، لا تُدرك، وقليلة الحياء حين تدرك ألا وجود لموضوع بشري موافق للامتناهي وألا وجود لحركة تستحق العناء، فإن القلب يكف عن استخدام دقاته لإخفاء فراغه. حيث يتشابه البشر داخل مصير متماثل وعبثي. من بين كل الأهداف المقترحة على الكينونة، والتي يمكن إخضاعها للتحليل، أيها ينحو نحو أن يكون مضحكًا أو جنائزيًا؟ أيها يكشف لنا ما إذا كنا تافهين أو مشؤومين؟[٢].

إن البطولة هي الرغبة في الموت، ولكنها أيضًا الرغبة في الحياة، حين يصبح كل يوم أثقل من الأبدية. من لم يكابد غير المطابق لحياتي، لم يعش أبدًا.

---

[١] إميل سيوران: غسق الأفكار، ترجمة: عبد الوهاب ملوح، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٠م، ص ١٥٣.

[٢] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١٢٦.

هل يجب التعبير دائمًا عن الرغبة في الموت، للشعور بالقرف من الموت؟ بإشباعنا لأهوائنا حتى النهائية، نصل إلى نقيض الخوف من الانطفاء. وهنا تبدو لي الحياة غريبة منذ ذلك الوقت الذي لم أعد أنتمي فيه إليها[١].

إن اليأس عنصر أساسي في حياتنا، أو كما يعبر سيوران "فطرية يأسنا"، وأننا سُحرنا في أنفسنا حتى فقدنا القدرة على الابتعاد عن الدرب المحفور في فطرية يأسنا. هل نعفي أنفسنا من الحياة لأنها ليست عنصرنا؟ لم يخوَّل أحد الحق في توزيع شهادات اللاكينونة. علينا أن نستمر في التنفس. في الإحساس بالهواء يحرق شفاهنا. في مراكمة الحسرات وسط واقع لم نرغب فيه. علينا أن نتخلى عن إيجاد أي تعليل للعلة التي تسهر على هلاكنا. تباغتنا فترات الزمن كما يفعل الخنجر، وتستبد الرغبات بلحمنا فيرفض أن يتحجر. كيف يسعنا حينئذٍ أن نواجه أي لحظة تُضاف إلى مصيرنا؟ بواسطة أي حيلة نعثر على قوة الوهم التي تزين لنا البحث عن حياة أخرى، جديدة؟[٢].

وهنا نلاحظ أن سيوران دائمًا ما يطرح فلسفته في صورة سؤال، وهذا السؤال يعبر عن حيرته، ذلك أن الكينونة، بالنسبة له، هي البحث عن اللاكينونة، كما أن رغبته الدائمة أن يخرج عن إطار هذا الزمن، وعن إطار هذه الحياة، وهو طموح لن يصل إليه. ولذا فإن سؤاله الحائر دائمًا عن الحياة والكينونة والزمن لا إجابة له، والنتيجة هي حالة العزلة والعبث، والتعاسة التي يغوص فيها طوال حياته. ويزيد سيوران على كل ذلك سخريته من هذه الحياة، رغم عشقه لها، فهو رغم كل هذه التعاسة والكآبة يستمتع بها، متخذًا من الموسيقى والفنون سبيلاً حدسيًا وربما صوفيًا، يُكسب الحياة مذاقًا خاصًا بسيوران.

يرى سيوران أن الابتكار حماية مؤقتة من براثن الموت. ويحدثنا عن رؤيته للحياة، وهي رؤية خاصة جدًا بسيوران على النحو التالي: أشعر أني على وشك

---

[١] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ص ١٥٣، ١٧٢.

[٢] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١١٨.

الانفجار مما تهبه لي الحياة وآفاق الموت. أشعر أني أموت من العزلة، من الحب، من الكراهية، ومن كل أشياء الحياة. يبدو أن كل ما يحدث لي جعل مني بالونة مهيأة للانفجار. تكتمل في داخلي هذه اللحظات القصوى وتتحول إلى لاشيء. تتحدد داخليًا إلى حد الجنون، ما بعد كل التخوم، على هامش النور، هناك حيث هذا الأخير يتم انتزاعه من الليل، نحو امتلاء زائد حيث يلقي بك إعصار متوحش مباشرة في العدم. تبتكر الحياة الكمال والفراغ، الحيوية المفرطة والانحطاط الهائل. من نحن أمام الدوار الذي يسحقنا إلى درجة العبثية؟ أشعر أن الحياة تقرقع بداخلي تحت ضغط الكثافة، ولكن أيضًا بتأثير من انعدام التوازن، مثل انفجار جموح قادر على تفجير الفرد لذاته نهائيًا[١].

خلاصة القول في جدال الحياة والموت عند سيوران أنه لا شيء يمكن اختزاله في الوحدة. يرصد العالم العدم من جميع الزوايا. ليس التناقض معنى للحياة فقط، وإنما هو أيضًا معنى الموت. كل فعل متطابق مع بقية الأفعال، فلا أمل هناك ولا يأس، كل شيء متشابه، نموت ونحن نحيا، ونحيا ونحن نموت. ومنه بالمطلق تزامن: ساعات غسق، ودموع، وبراعم، ووحوش وأزهار، كل شيء يسبح في ثمالة اللاموميز[٢]. ويعني سيوران بالغسق: غروب الحياة بالموت وانطفاء لنورها. إذن فالموت غسق وانطفاء لنور الحياة.

إن الموت يثرينا قبل أن يثقل علينا، وتتضاعف قوانا عند الاحتكاك به، وذلك الإحساس بأننا جثة قادمة، يحجب عنا أفق الزمن، وينتهي بنا إلى تخدير أفكارنا وآمالنا وعضلاتنا، الأمر الذي يجعل ذلك الفائض من الاندفاع الذي أثاره

[١] إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، ص ص ١٥، ١٦.

[٢] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ٩٤.

فينا هاجسنا الجديد، يتحول –حين يترسخ نهائيًا في العقل– إلى ركود بالنسبة لحيويتنا. هكذا يحثنا هذا الهاجس على أن نكون كل شيء ولا شيء[١].

يفترض عادة أن يضعنا الموت أمام الخيار الوحيد الممكن: الدير أو الحانة. أما ونحن لا نستطيع الفرار منه لا عن طريق الأبدية ولا عن طريق المتع، أما ونحن مطاردون في منتصف حياتنا، بعيدون عن السماء، فإن الموت يحولنا إلى ذلك النوع من الأبطال المتفسخين، الذين يعدون بكل شيء في الفراغ. جيف عمودية يقتصر نشاطها الوحيد على التفكير في أنها قد تكف عن الكينونة[٢].

بناء على ما سبق فإن الموت إذن نكهة الوجود، وحده يسبغ مذاقًا على اللحظات، وحده يقاوم تفاهتها. نحن مدينون له بكل شيء تقريبًا. هذا الاعتراف بالدَيْن، الذي نزداد إنكارًا له، هو أفضل تعزية لنا في الحياة الدنيا. ونظريًا، لا يهمني كثيرًا أن أعيش أو أن أموت، عمليًا تشغلني كل أشكال القلق، التي تفتح هوة بين الحياة والموت. لقد مللت من كوني أنا، ومع ذلك، أتوسل للآلهة باستمرار كي تعيدني إلى ذاتي. إنه لا وجود إلا لعلامة واحدة تشهد على أننا فهمنا كل شيء. أن نبكي بلا سبب[٣].

يزداد جدل الحياة والموت وضوحًا في لحظات الاحتضار، حيث تشير لحظات الاحتضار إلى تقدم الموت على حساب الحياة، دراما وعي ناتجة عن قطيعة في التوازن بين الحياة والموت، وهذه اللحظات هي مؤشر على التفكك والانهيار. فنحن لن نفهم الموت أبدًا إلا من خلال الشعور بالحياة كما لو أنها احتضار مستمر، حيث تمزج الحياة بالموت، وما الذاكرة إلا تذكيرًا بالعدم. وفيما يخص التصورات والنظريات الأخرى لن تعلمنا تقريبًا أي شيء حول الموت. فالصمت أو صرخة اليأس هي الموقف الملائم الوحيد[٤].

---

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١٤٤.

[٢] المصدر نفسه، ص ١٤٤.

[٣] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ص ٢١ – ٢٣.

[٤] إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، ص ص ٢٧، ٣٧، ٣٨.

إن العدم عند سيوران لا يحمل تلك الدلالة الكارثية التي ننسبها إليه. إنه جزء من تجربة التماس مع النور، ألا وهو إذا شئنا حالة أبدية من الغياب النوراني والفراغ المشع: إنه الوجود وقد انتصر على كل صفاته، أو لنقل إنه لا وجود فائق الإيجابية، سخي بسعادة لا مادة لها ولا قوام ولا نقطة ارتكاز في أي عالم من العوالم. إذن ما من فكرة تحذر وتطمئن مثل فكرة الموت. ليس من شك في أن صفتها المزدوجة هي السبب في أننا نلوكها باستمرار إلى حد أننا نعجز عن الاستغناء عنها. أي حظ في أن تجدد داخل اللحظة نفسها، سمًا وترياقًا، كشفًا يميتك ويحييك، سمًا منشطًا. فعندما نقع في فتنة الموت، يحدث كل شيء وكأننا عرفنا الموت في حياة سابقة، ونحن الآن في شوق كبير لالتقائه من جديد في أقرب وقت(١).

إن من لم يدمن ملذات القلق، ولم يستمتع فكريًا بمخاطر انقراضه الخاص، ولم يتذوق إبادات قاسية ولذيذة، لن يُشفى أبدًا من هاجس الموت. سيظل فريسة لتباريحه بما أنه اختار مقاومته. أما ذلك الذي تمرس بمادة الرعب وتحول تلقائيًا إلى رماد، فيما هو يتأمل في عفونته، فإنه سينظر إلى ماضي الموت، ولن يصبح هو نفسه سوى مبعوث من بين الأموات لم يعد قادرًا على الحياة.

هكذا يكون "منهجه" قد شفاه من الحياة والموت على حد سواء. فليس من تدريب روحي إلا على العدم، وعلى سخافة أن يكون المرء حيًا(٢). يقول سيوران: "الرغبة في الموت كانت همي الأوحد، في سبيله ضحيت بكل شيء، حتى بالموت"، ففي أعماق عجزنا نقع فجأة على ماهية الموت. إنه إدراك أقصى، مستعصٍ على التعبير، هزيمة ميتافيزيقية(٣).

---

(١) إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ترجمة: آدم فتحي، ط١، بيروت – بغداد، ٢٠١٨م، ص ص ٦، ٧٩، ٨٨، ٨٩.

(٢) إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ٢٥.

(٣) إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ١٠٣، ١٠٦.

خلاصة القول في جدل الحياة والموت فإنه رغم أن الحياة ليست سوى تعذيب، لن أستطيع رفضها، لأني لا أؤمن بمطلق القيم الذي سأضحي من أجله، ولأكون أكثر جدية، أنا لا أعرف لماذا أحيا، وأيضًا لا أعرف لماذا لا أتوقف عن الحياة. فحتمًا المفتاح يكمن في لامنطقية الحياة، وهو ما يجعلها تظل على حالها دونما أي سبب[١].

ج- جدل الوعي والألم (الحرية):

لا ينجم الألم إلا عن الوعي، حيث ينجم الثراء الباطني عن صراط يتم تعهدها داخل الذات. لقد انخرط سيوران في الألم وبات يخشى نهايته. فنحن في وسعنا إرهاف آلامنا وتنميتها، لكن بأي وسيلة يمكننا التحرر منها دون أن نُصبح مؤجلين؟ فنحن لا نوجد إلا بقدر ما نتعذب. الروح لا تكبر ولا تهلك إلا بمقدار ما تضطلع بما لا يطاق[٢].

وفي إحدى شذرات سيوران يعبر عن أنه كلما أحاطت بنا المصائب صرنا أكثر تفاهة: مشيتنا نفسها تتغير لذلك. المصائب تدفعنا إلى الاستعراض. تخنق فينا الشخص لتوقظ الشخصية. إذ لولا التفاهة التي جعلتني أعتقد بأني أكثر البشر تعاسة، لانهرت منذ زمن طويل. ومن ثم فإنها سبة كبيرة للإنسان أن نفكر بأنه محتاج إلى المساعدة أو إلى القدر لتدمير نفسه .. ألم يستهلك أغلب ذاته في تحطيم أسطورته الشخصية؟ في هذا الرفض للديمومة، في هذا التقزز من الذات، مكمن غدره، أو كما يقال سابقًا، مكمن عظمته. إذ لم تخلق الأفراد إلا للتخفيف عن الألم، لتمكينه من الانتشار على حسابهم[٣].

---

[١] إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، ص ٥٣.

[٢] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ص ٥٣، ١٦٥، ١٧٥.

[٣] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ١٠٤، ١٠٦.

إذن أين توجد أحاسيس، لقد تبخرت ... فيَّ أنا، وما هذه الأنا إن لم تكن مجموع تلك الأحاسيس المتبخرة. والوعي إذن هو الرذيلة الوحيدة التي تتيح لك أن تكون حرًا في صحراء. في زمن ما لم يكن الزمن موجودًا بعد .. رفض الولادة ليس سوى حنين إلى ذلك الزمن ما قبل الزمن. كما أن أحاسيسنا بالضيق هي التي تحفز الوعي وتخلقه، ما إن تنجز عملها حتى تضعف وتغيب الواحد بعد الآخر. أما وعينا فهو يمكث ويعيش بعدها دون أن يتذكر ما هو مدين به إليها، بل دون أن يعرفه أصلاً. لذلك لا يكف الوعي عن الوعي عن استقلاليته وسيادته على الرغم من أنه يكره نفسه ويتمنى أن يتلاشى. هو ذا خطر لا يخشاه من عاش طيلة حياتهم في نهم دائم إلى عدم الرضى، في معاشرة دائمة للندم والقرف[١].

بناء على ما سبق فإن جدل الوعي والألم نجم عنه الإحساس، أو بالأحرى عمق الإحساس بالندم والقرف في الحياة، ومن ثم عبث الحياة، فنحن في مملكة العبث، أو كما يسميها سيوران، مملكة اللاجدوى أو اللامعنى.

كيف يمكن إذن أن نكون في عالم بدون وعي؟ على أحسن ما يرام، يمكن أن يجيب. فمرحبًا أيها الجهل في مملكة سيوران. أنت لست منفى. بل أنت خلاصنا، علينا أن نجعلك ضرورة، لا مفر منها، وهذا اعتراض ضد هذا العالم الذي لا يستحق أن نعرفه. وها هو سيوران يتبرأ تمامًا من سلطة الغاضب نيتشه. فكما يرى سيوران أنا قد آمنا مع نيتشه بديمومة حالة الوجد، إلا أننا، وبفضل نضج استخفافنا بكل شيء، ذهبنا أبعد منه كثيرًا، فغدت فكرته عن الرجل الأسمى مجرد وهم بالنسبة لنا، وهكذا سقط من كان يسحرنا أيام الشباب. وهنا يعترف الروماني (سيوران) أنه مشى شوطًا مع الألماني (نيتشه)، ولكنه رفض فكرة السوبرمان وامتداداتها، ويعتبر سيوران أن مملكة اللاجدوى أفضل مكان في العالم[٢].

---

[١] إميل سيوران: مثالب الولادة، ص ص ١٨، ٢٤، ٢٩.

[٢] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ص ٣٣، ٣٤.

يرى سيوران "الذات" دائمًا في منفى في هذه الدار (الذات)، لأن الدار ليست دارها. فكأن الإنسان غير كامل الصنع! بل هو شيء كان لا ينبغي أن يكون أصلاً. وهذا المنفى للإنسان في الزمن، يفتح بدوره هوة بين الذات والعالم. إذن الوعي في حد ذاته مرض. فالجهل وطن والوعي منفى. الوعي لعنة مزمنة، كارثة مهولة. فمن كان واعيًا فوق اللزوم، فهذا ما يعكر صفو حياته ويجعلها شبه تراجيدية. فالوعي شرخ وخلاف مع العالم. إنه ليس مجرد شوكة، بل هو خنجر مغروس في عمق الجسد. ذلك هو الوضع التراجيدي المنفصل عن المعنى. حينما أتساءل، لا يجيبني إلا العدم ذلك الفراغ الفظيع الأليم[١].

أين المفر إذن أمام هذه الطاقة الكبرى؟ هل هناك حل ما؟ يتساءل سيوران: ما العمل؟ كل ما يقلل من هيمنة الوعي ويعيد النظر في جبروته، ألا يتوق الإنسان إلى العودة إلى الوضع الذي كان عليه قبل الوعي؟ أليست الطريقة الوحيدة ضد "الأنا" ضد شر "التفردن"، ضد تأثير حالة الوعي المضنية. لنرفع الكؤوس على نخب الجهل، لنسكر، لنفلت من حالة الوعي! في مسألة الخلاص الذي أرقته، نجده كثيرًا ما يلجأ إلى الاستئناس بالمذاهب الغنوصية، التي تقترح هي الأخرى خلاصًا خارج إطار المعرفة العقلية والغنوضية والتي يقصد بها سيوران تلك الأفكار التي تشرط خلاص الإنسان بوجوب عودتها إلى حدودها الطبيعية، من خلال الرجوع إلى حالة الجهل الأولى[٢].

إن سيوران هو ذلك الرجل المنفي في وعيه! فالوعي بالزمن مؤامرة على الزمن. فقد استعار سيوران لغة العيادة والمرض ليصف الحياة "وباءً حقيقيًا" على وجه الأرض. ولكنه يجد في كل علة أو مرض عضوي شيئًا من "الخصوبة"، بل يجد في الباثولوجيا "مولدًا للأحاسيس والأفكار". ولندع سيوران يقوم بتشريح

---

[١] المرجع نفسه، ص ٣١.

[٢] المرجع نفسه، ص ص ٣٢، ٣٣.

وتشخيص حالته: أنا رجل هائج بعض الشيء. من النوع الفالت من مرض الصرع. لم يكن لي الحظ في أن أكون مصابًا بالصرع. لو كنت مصابًا بمرض حقيقي لشكّل ذلك لي خلاصًا. لكنني عشت باطنيًا دائمًا لأنني لم أجد منفذًا خارج ذاتي. في المرض نحن أمام توصيف من نوع آخر: "أنا أعاني إذن أنا موجود"[١].

هنا يدفع سيوران بالتأمل في تلك المعاناة، مرة أخرى، إلى أقصى مدى ممكن. لم يكتفِ بإضفاء هالة متميزة على المرض، لكي لا نقول علاجية، لكن ذهب إلى اعتبار المرض أهم شرط من شروط انبثاق الجانب الإنساني في بني آدم. كان المرض على رأس قائمة العوامل التي أدت إلى ظهوره. ويبقى الأمل في نهاية الأمر ذلك اليقين الذي يدل على واقعية العالم. إنه شرط حالة الوعي أساسًا. فلا وعي، ولا أدب، ولا فكر عظيم بمنأى عن الألم، حيث تناول سيوران في كثير من شذراته العلاقة الوثيقة بين الألم والوعي، فأنبغ ما في الحياة الألم. وفي كتابه "السقوط في الزمن" المعاناة إنتاج للمعرفة. وفي نفس الكتاب يقول سيوران إن الألم والمعاناة هي أحسن المسالك للوصول إلى حالة من عدم التوافق مع العالم. إننا نتحرر بفضل آلامنا وحدها، إذ لا يكون صاحب عمق نظر من لم يكابد ولم يعانِ. لكن ما الفائدة من هذه المعرفة؟ ما جدواها؟ هل يمكن أن نكون خلاصًا للذات المتأملة؟ "أبدًا يجيب سيوران إنها معاناة أخرى"[٢].

خلاصة القول إن الحياة مرض ميتافيزيقي، والمرض هو الذي يدلنا على واقعية العالم، فلا وعي ولا أدب عظيم بمنأى عن الألم. وقد تناول سيوران، في كثير من شذراته، العلاقة بين الألم والوعي، فالألم هو جوهر الزمن، والوعي هو ما يجعلنا ندرك أن الحياة عبث، بلا جدوى، ولا معنى. وهنا نتساءل: هل الحرية تنجم

---

[١] حميد زنار: المعنى والغضب، ص ص ٢٧، ٢٨.

[٢] المرجع نفسه، ص ص ٢٨، ٢٩.

عن هذا الوعي، وإذا كانت الحياة والزمن لهما معنى خاص عند سيوران، فما معنى الحرية عند سيوران؟

إن سيوران يرفض السماء والأرض كما يرفض نفسه. هكذا على الأقل يبلغ حرية كاملة ليست في متناول من يبحث عنها إلى ما لا نهاية في المستقبل. ولدنا في سجن، بأعباء على أكتافنا وأفكارنا، يستطيع هذا العالم أن ينتزع منا كل شيء، أن يحرم علينا كل شيء، لكن ليس في وسع أحد، مهما كان، أن يمنعنا من إلغاء أنفسنا. من شأن هذا التناقض أن يطور في العقل صراعًا لا حل له. حين نشرع في التفكير في الحياة وفي اكتشاف خوائها اللانهائي. تكون غرائزنا قد اتجهت ناحية أفعالنا، في هيئة رسل يكبحون جموح إلهامنا ومرونة انعتاقنا. إلا أننا وقد اكتسبنا وعينا بحريتنا وسادة قرار تتضاعف جاذبيته بقدر إحجامنا عن إنقاذه[١].

إن الوعي أكثر بكثير من شوكة، إنه الخنجر في اللحم. وهنا يتضح عمق الألم بالحياة. ولذا فإن اللاوعي وطن، والوعي منفى عند سيوران، فليس هناك موقف أكثر زيفًا من أن نفهم ونظل أحياء[٢]. أليس الألم في حقيقته جوهر الزمن، ولا حق لنا في الضحك إلا إثر التألم من كل شيء. كيف نطأ بأقدامنا ما لم يكن معاناة؟ (معنى السخرية الكونية)[٣].

إن هذه الحالة من الألم تجعلنا دائمًا في حالة من الحزن، والنوم، بالنسبة لسيوران، هو الترياق الشافي من الحزن. وهو في ذلك أفضل من الزمن[٤]. ولكن أن تقضي الليل في رفع جبال بحجم الهيمالايا، وأن نسمي ذلك نومًا!"، تلك هي

---

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ص ٦٧ – ٦٩.

[٢] إميل سيوران: مثالب الولادة، ص ص ٦١، ١٥٠، ٢٤٥.

[٣] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ص ١٨، ٧٥.

[٤] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ص ٨٣، ٩٢.

هموم الليل التي يعاني منها سيوران. إذ ليس من هدف للنوم سوى نسيان الزمن[١]. ولكن سيوران دائمًا ما كان يعاني من حالة الأرق الدائمة، فلا أحد له الحق في النوم على مرتفعات اليأس[٢]. ولذا كان فقدان النوم محنة خارجة عن نطاق الذات، تجعل سيوران وجهًا لوجه مع الليالي والكلمات[٣].

إذن ما معنى الحرية عند سيوران من منطلق العبث؟

يرى سيوران أنه لا تؤدي معالجة موضوع الحرية إلى أي نتيجة من خير أو شر، وكأن جدل الوعي والألم يولدان حرية تتحالف مع العدم، أو بالأحرى يولدان عبثًا لا جدوى منه. فنحن لا نملك سوى لحظات معدودة كي ندرك أن كل شيء متوقف علينا[٤]. الجميل في الحرية أننا نتعلق بها في النطاق ذاته التي تبدو فيه مستحيلة[٥].

على الرغم من أن مشكلة الحرية غير قابلة للحل، فإن في وسعنا دائمًا أن نثرثر في شأنها، وأن نقف إلى جانب الاحتمال أو إلى جانب الضرورة ... ولدينا في أمزجتنا وأحكامنا المسبقة مما يسهل علينا خيارًا يحسم في المسألة ويبسطها دون أن يحلها. ووفقًا لرأي سيوران، فإنه لا وجود لأي بناء نظري يتيح لنا الإحساس بالمشكلة واختبار حقيقتها الكثيفة المتناقضة، إلا أن حدسًا مميزًا يضعنا في صميم الحرية، على الرغم من كل الحجج المبتكرة ضدنا. ونحن نخاف، نخاف

(١) إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ٢٠.

(٢) إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، ص ٥٨.

(٣) إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ٣١.

(٤) إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ٩٥.

(٥) إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ١٩.

اتساع الممكن، لأننا لسنا مستعدين للكشف بهذه الرحابة المباغتة، ولسنا مستعدين لهذه النعمة الخطرة التي لم نطمح إليها إلا أحجمنا عنها[١].

لم يكف سيوران عن الإشارة إلى تلك السكينة الأبدية –في العدم– لأنه يعتقد أن في عمق الإنسان توقًا حميمًا للعودة إلى وضع ما قبل حالة الوعي، وهو ما يفسر حسرته المستديمة على فقدان البراءة والمعنى والحرية. ولذا فإنه هناك ندمًا لا نهائية لدى سيوران على ذاك الزمن الذي ترك السقوط منه فجوة سحيقة بين الأنا والعالم. ما أسعده زمنًا لم يكن فيه الكائن البشري قد انحدر بعد إلى وعي ممزق. ولذا يمكن اعتبار سيوران فيلسوف المستحيل بامتياز، ويعد من أكثر الفلاسفة تجذرًا في الكتابة المأساوية. فقد بقى طيلة حياته، وفي كل ما كتب وقال، في عدم تلاؤم حاد مع المعطي، مع منطق الأشياء. بل في حالة عدم اكتفاء تام بالقائم. فكان سيوران، على طول الصفحات التي سوَّد، معلقًا بين طرفين متقابلين: إما كل شيء أو لا شيء على الإطلاق! جنة أو جهنم. فهل يعود موقفه الفلسفي إلى شعور مبكر بالضجر غذى تبرمه من الحياة إلى غير رجعة، أم أن نظرته إلى العالم تعود إلى تلك الهوية الغنية تاريخيًا، والممزقة ثقافيًا، أم أن الأمرين معًا جعلا منه مفكرًا فريدًا تعاطي مع الفلسفة بطريقة جديدة وشخصية للغاية، كثيرًا ما تفتك ابتسامة من أشد الوجوه اكفهرارًا[٢].

يدعى الجميع، وقد خلو من أي معتقد أو يقين، الانتساب إلى الحرية. إن شرط حضورها، كما يرى سيوران، هو في الوقت نفسه، شرط إلغائها. فهي تفتقر إلى الأسس. وكلما اقتربنا من الكمال ازدادت هشاشتها، لأن كل شيء يتهددها حتى علة وجودها. وإن الإنسان ليبدو أضعف من أن يتحملها أو أن يستحقها. وإذا كانت الحرية مفتقرة إلى الجذور، سطحية في جوهرها، فلأنها هشة في ذاتها،

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ٩٤.

[٢] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ص ١١، ١٢.

لا وسيلة لها كي تحافظ على بقائها وسط المخاطر التي تتهددها من داخلها ومن خارجها، وهي بالإضافة إلى ذلك لا تظهر إلا في كنف نظام محتضر[١].

إن الحرية لا تشغل في مجرى الزمن أكثر مما تشغله لحظة انخطاف في حياة صوفي. إنها تفلت منا تحديدًا لخطة تحاول الإمساك بها، والتعبير عنها، فليس في وسع أحد أن يستمتع بها دون أن يرتجف، ويرتعب. فالحرية فانية بامتياز. كذلك ما أن تنشأ حتى تعلن عن فقدانها كل مستقبل، وتأخذ في العمل من أجل إنكار نفسها والشروع في الاحتضار. أما بالنسبة إلينا ونحن نملكها فهي ليست سوى وهم، لعلمنا بأننا سنضيعها، ولأنها في كل الأحوال لم توجد إلا لتضيع. لذلك نحن نبحلق داخل عدمنا في كل اتجاه[٢]. وهذا يؤكد عبث الحياة، ولا جدواها (اللامعنى).

لقد وضع بوذا هاوية الولادة كمصدر لكل الآلام. كما أن غذاء بوذا الروحي وكل صداقاته الفكرية تذهب في نفس الاتجاه نحو تبخيس الحياة دائمًا[٣].

د- هل الحياة تستحق أن تعاش؟!

ما زال البعض يتساءل إن كان للحياة معنى أم لا؟ وهو ما يدفع للتساؤل إن كانت محتملة أم لا. وهنا تتوقف المسائل وتبدأ الحلول. فالحياة تبدو لي تموجًا بلا جوهر، غير أنه ليس من المستبعد أن نعيش في انعكاس عالم قد مضى، نعمل على تمديد أصدائه المتأخرة. كما أن الذاكرة ليست مجرد حجة ضد الزمن فقط، لكنها تذهب أيضًا بخلاف هذا العالم الحالي، كاشفة لنا، على نحو مربك، عوالم الماضي الممكنة وتتويجها من قبل الفردوس. فأن تتكفئ داخل الذاكرة، فذلك يجعل

---

[١] إميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ترجمة: آدم فتحي، ط١، بيروت – بغداد، ٢٠١٠م، ص ص ٣٣ – ٣٥.

[٢] إميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ص ص ٣٥، ٣٦.

[٣] حميد زنار: المعنى والغضب، ص ص ٢٣، ٢٤.

منك ميتافيزيقيًا[١]. وهذا يؤكد موقف سيوران من رؤيته أن الحياة عبث، بلا معنى، ولا جدوى. فالحياة، بالنسبة لسيوران، غير محتملة، ومن ثم غير جديرة بأن تعاش.

لم يحدث أبدًا أن بدت لي هذه الحياة جديرة بأن تعاش، أحيانًا تستحق الأفضل، وأحيانًا أخرى الأقل بكثير. والشيء المؤكد أنها في الحالتين غير محتملة، هذا هو رأي سيوران. إننا لن نكون فاشلين إلا إذا كان للحياة معنى، فلو وجدنا إنسانًا يثبت لي وجود معنى مطلق، يبين لي الأخلاق الملازمة للصيرورة، سأفقد روحي جراء الندم واليأس. حين أتلفنا حيواتنا بالتواسي في الممر غير الصحيح، في خداعات السيرورة، حين تألمنا بشغف من المظاهر، طبعًا، لا مراء في أنه لا يمكن للحياة أن يكون لها معنى، وإن حدث وكان لها، فعليها أن تخفيه إن كانت تريد الاستمرار في الاحتفاظ بنا. فذاك الذي يعشق الحرية، ولو بشكل قليل، لن ينحني بإرادته تحت تأثير أي معنى، حتى ولو كان معنى العالم. وكل وضوح هو وعي بضياع ما[٢].

ماذا يقول سيوران لقارئه عن هذه الحياة الدنيا التي لا تستحق أن تعاش؟ يقول سيوران: لقد هجوتها على الدوام، وكل ما قلته فيما يبقى صحيحًا. فلست مستعدًا لحذف كلمة واحدة مما قلت. فكل كتبه وآخرها "اعترافات ولعنات" كانت في مجملها كتب حرب حقيقية ضد الحياة، وإن كانت حربًا طريفة، كان القصف فيها بعصا القهقهة وأناقة العبارة ولسعات الهزل والمزح الأسود. إذ قبل أن تكون الحياة هنة كبرى في نظره، فهي قلة ذوق لا يصححها لا الموت ولا الشعر[٣].

---

[١] إميل سيوران: دموع وقديسون، ترجمة: عبد الوهاب ملوح، صفحة سبعة لنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٠م، ص ص ٢٣، ٢٤.

[٢] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ص ٨٢، ٨٣.

[٣] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ٢٥.

بنفس الأشياء يعبر سيوران عن سخطه بأن الحياة لا تستحق أن تعاش، من أول كتاب له وحتى آخر كتاب له. فمنذ كتابه "على ذرى اليأس" أو "على مرتفعات اليأس"، وهو كتابه الأول، الصادر في بوخارست سنة ١٩٣٤، حيث لم يكن قد تجاوز الحادية والعشرين خريفًا إلى آخر كتاب، والمذكور آنفًا، ألا وهو "اعترافات ولعنات" وكان سيوران قد بلغ من الحزن عتيًا، بقى غضبه الفلسفي هو هو. خمسون سنة كاملة تفصل بين الكتاب الأول والأخير، ولم يغير من مواقفه قيد أنملة. وتبقى الحياة كما عهدها في شبابه "غير ممكنة وغير معقولة"، الحياة عبث لا معنى لها، ولن يكون لها معنى أبدًا. فما العيش إلا افتراءً على النفس وافتراءً على الغير، حكم على الحياة بالإعدام[١].

وفي إحدى شذراته يحدثنا سيوران بأن ما كان يعرفه في الستين، كان يعرفه أيضًا في العشرين: أربعون سنة من العمل الطويل وغير المجدي، للتثبت بأن يكون كل شيء مجردًا من الماهية والأساس، والمبرر هو أمر اعتدت أن أكون على يقين منه، حتى أن كل من يجرؤ على مراجعتي فيه، وإن كان أكثر من أحترم، يبدو لي، كما يقول سيوران، دجالاً أو غبيًا[٢].

بناء على ما سبق، فإن خلاصة موقف سيوران في كون الحياة لا تستحق أن تعاش هو أن الحياة تثير فينا من الفزع أكثر مما يثيره الموت، من فرط مراكمتها الأسرار الباطلة واحتكارها اللامعنى، إنها هي المجهول الكبير. فلو امتلكت الحياة واحدة لصالحها، متميزة ولا جدال فيها، إذن لتبددت[٣].

---

[١] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ص ٢٥، ٢٦.

[٢] إميل سيوران: مثالب الولادة، ص ص ١٢، ١٣.

[٣] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ٢٢.

ثانياً- العبث والسقوط في الزمن:

أ- السقوط في الزمن أم السقوط من الزمن؟!:

لعل من أهم مقتطفات سيوران، وخاصة من الصفحات السبع الأخيرة المفضلة لديه من كتاب "السقوط في الزمن" هو هذه الشذرة التي يرى فيها أن: الآخرين يسقطون في الزمن، أما أنا فقد سقطت من الزمن. فإذا كنت، أي سيوران، لا أحس بالزمن، إذا كنت بعيدًا عنه أكثر من أي كان، فأنا بالمقابل أعرفه. إنني أتأمله باستمرار: إنه يشغل مركز وعيي. ولذا ارحموا من كان في الزمن، ولم يعد قادرًا على أن يكون فيه! كما أن الشعور بالفراغ ينجم بسبب هروب الزمن[١].

لقد نتج عن تفرد البشر من جراء تراجيديا الولادة ضياع في الزمن، واغتراب أبدي في هذا العالم[٢]. كما أن الاغتراب الأسوأ في نظر سيوران، هو السقوط في الجسم (الجسد)، فالجسد بالنسبة له نقيض الرحمة[٣].

منذ الطفولة أحسست بعبور الساعات مستقلة عن كل مرجع، عن كل فعل، وعن كل واقعة. أحسست –أي سيوران– بانفصال الزمن عن كل ما ليس هو، عن كل ما ليس وجوده بذاته، كيانه الخاص، سلطانه، جبروته. أذكر بوضوح لا مثيل له تلك العشية حين وقفت لأول مرة قبالة الكون الشاعر، فإذا أنا لا شيء إلا فرار لحظات متمردة على القيام بالوظيفة الخاصة بها. كان الزمن ينسلخ من الوجود على حسابي. يقول سيوران: "لم ألعن يوم ميلادي. أما الأيام الأخرى فقد أشبعتها

---

[١] إميل سيوران: لقد كان آدم سعيدًا، ص ص ١٨، ٣٨.

[٢] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ٢٩.

[٣] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ١٤٠.

لعنات" فأن تكون حيًا فجأة هزتني غرابة تلك العبارة. كأنها لا تنطبق على أحد. ويستطرد سيوران: ليتني أكون حرًا. حرًا إلى حد الجنون، حرًا مثل وليد ميت[١].

لقد أراد الله أن يبقى شبيهًا بذاته فخلق الإنسان ونصحه بالوفاء إلى شجرة الحياة، إلا أن الإنسان فضل الشجرة الأخرى الكائنة في منطقة التقلبات. وسقوطه هو جنون التغيير، وثمرة الفضول، بل ومنبع كل المصائب. وهكذا فإن ما كان بالنسبة إلى أولنا مجرد نزوة، سيصبح بالنسبة إلينا قانونًا[٢].

إن الزمن أثرى بالموارد وأكثر إبداعًا وعطاء مما يظن البعض، من ثم هو يمتلك قدرة ملحوظة على مساعدتنا وعلى منحنا في كل ساعة مذلة جديدة. فأن تعيش يعني أن تتقهقر[٣]. ومن هنا يرى سيوران أن تجربة البشر منيت بالفشل. لقد بدأ فشلها مع آدم. ثمة سؤال يظل مع ذلك شرعيًا: هل سيكون لنا من الاختراعات ما يكفي لتظهر في مظهر المجددين؟ لنضيف إلى هذا الفشل؟ نحن في انتظار ذلك، لنحافظ على أنفسنا من خطيئة أن تكون بشرًا، لنتصرف كمهرجي سقوط. وكما يرى سيوران أنه لو كان آدم سعيدًا في الحب لجنبنا التاريخ[٤].

ب- الغربة الميتافيزيقية:

أراد سيوران الغربة في أعماقه حتى لا ينتمي إلى أي أرض، ويحافظ على وعيه بالطابع الانتقالي المؤقت لحياة أي إنسان. فالإنسان الذي يحترم نفسه ليس له وطن، ذلك أن التاريخ سقوط أول في الزمن وطرد من الأبدية. وما بعد التاريخ هو سقوط ثان، أي أنه سقوط من الزمن[٥]. كما يحدثنا سيوران في كتابه "مساوئ أن

---

[١] إميل سيوران: مثالب الولادة، ص ص ١٣ – ١٥.

[٢] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ٧٦.

[٣] إميل سيوران: مثالب الولادة، ص ص ٣٤، ١١٩.

[٤] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ١٤٠، ١٦٤، ١٦٥.

[٥] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ٣.

يكون الإنسان قد ولد" ١٩٧٣، بأنه عاش طوال حياته برفقة الشعور بأنه قد أبعد عن مكانه الحقيقي. ولو لم يكن هناك معنى لعبارة "الغربة الميتافيزيقية" فإن وجوده وحده كفيل بإيجاد معنى لها. فلتكن علاقتنا بسيوران ونصوصه إذن وثيقة، أي فلنتبين أساسها القائم على الحزن والألم وعذاب الشعور بالتمزق الجسدي والروحي في الآن نفسه. ولنغص في عالم سيوران الملتبس، غير راجين فجرًا ولا نورًا، لأن مثل هذا الليل يكشف عن قدرنا الحقيقي الكامن في إنسانيتنا الممزقة بين الأمل والألم، والبشر والشر والتاريخ واليوتوبيا[١].

عاش سيوران كل حياته في منفى جغرافي وفلسفي وفي رفض مستميت للمعطي، للمحدود وللجزئي ... وهو ما جعله دائم الندم على أمر لم يرتكبه، هو ورطة السقوط في وجوده: لست من هذا العالم، كتب ذات يوم أنا في وضع الغريب الدائم في حالة لا انتماء كلي حيال أي شيء. ضياع الفردوس يستبد بي أيما استبداد. ولذا فإن الإنسان في وضع الغريب، في حالة نوستالجيا مزمنة إلى مطلع منيع، توق محموم إلى فردوس ضائع إلى الآن، مرحبًا أيتها الغربة! غربة ورفض للمحدود فتمزقات.. دفعته دفعًا للبحث المتجدد دومًا عن زمن آخر بغية الخروج والانفلات من قيد الصيرورة الأرضية وسجن الزمن الحاضر الذي يخنقه. الصيرورة احتضار بلا خاتمة[٢].

إن الشعور بالمنفى ووعي التغرب في الزمن الأرضي هو الذي يولد ذلك الحنين إلى ماضٍ أسطوري. وما البحث عن هناك آخر سوى عسر تلاؤم مع اللحظة هنا. وما ذاك العسر إلا الحنين ذاته[٣]. فاهتمامنا بالزمن ناشئ، عند سيوران، عن زهونا بما لا رجاء فيه. لا أكون نفسي إلا إذا كنت فوقي أو تحتي،

---

[١] إميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ص ص ١٨، ١٩.

[٢] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ص ١٠، ١١.

[٣] المرجع نفسه، ص ١١.

في ذروة الغضب، أو في ذروة الإحباط. حين أكون في المستوى العادي لنفسي، أجهل أني موجود ومن هنا يرى سيوران أن الوعي بالزمن مؤامرة على الزمن[١].

وهنا تتضح معالم العبث عند سيوران في هذه الغربة الميتافيزيقية، فهو دائمًا ما كان يردد "أنا متشرد متيافيزيقي"، فهو طيلة الوقت لا هدف له في الحياة، كما أن الحياة بلا معنى في غربته الميتافيزيقية، ولذا فلا رجاء له في الزمن والحياة.

إن الزمن عند سيوران هو صعدة نحو اللاكائن. الزمن هو الصليب الذي يصلبنا عليه السأم[٢]. فمن صالح المرء أن يكون أبعد ما يمكن عن المستقبل. الحق أننا نتجهم ما إن يخطر ببنالنا هذا أو ذاك، ونتجهم تمامًا ما إن نفكر في كليهما (ويقصد سيوران الماضي والمستقبل)[٣].

لم يكن الفردوس مكانًا يمكن تحمله وإلا لاستطاع الإنسان الأول أن يتلاءم معه. وليس هذا العالم أكثر قابلية للتحمل بما أننا نفتقد الفردوس أو نطمح إلى آخر. ما العمل؟ إلى أين نذهب؟ لنمتنع ببساطة، عن عمل أي شيء وعن الذهاب إلى أي مكان. فالصحراء لا تعني حياة جديدة، بقدر ما تعني موت الماضي، أي أننا قد هربنا أخيرًا من تاريخنا الخاص[٤].

ألم يفهم الناس بعد أن ولى زمن الاهتمامات السطحية والذكية، وأن مشكلة الألم أكثر إيحاءً من مشكلة الجدل والقياس، ذلك أن صرخة اليأس أكثر إيحاءً بما لا يقاس، من ملاحظة حاذقة .. لِمَ لا نريد التسليم بالقيمة المتفردة للحقائق الحية؟ كما يتحدث سيوران عن الفترة التي سبقت تأليف كتابه الأول "على ذرى اليأس" أو "على مرتفعات اليأس" في بداية شبابه: عشت لحظات، يكون المرء فيها مأخوذًا

---

[١] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ٧٢، ٧٣.

[٢] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ص ١٩١، ١٩٢.

[٣] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ص ٨٨، ١٠٣.

[٤] إميل سيوران: مثالب الولادة، ص ص ١٩، ٢٤٦.

خارج المظاهر. هزة فورية تأخذك من دون استعداد. يجد الكائن نفسه في امتلاء خارق، أو بالأحرى في خواء حماسي. كانت تجربة عظيمة، الكشف المباشر ببطلان كل شيء. تلك الإشراقات فتحت لي مجال معرفة السعادة القصوى التي يتحدث عنها المتصوفة. وخارج هذه العادة المؤقتة لا يمتلك أي شيء وجودًا حقيقيًا[١].

نحن نعيش في مملكة الأشباح، ونحن على أية حال، لا نعود كما كنا أبدًا، سواء أكانت تلك العودة من الفردوس أو من الجحيم. فالخواء (الفراغ) يغدو معرفة، والتصوف يغدو فاقدًا للمطلق، كما أن الإخفاق هو الطبيعة العصرية للعدم. وطيلة حياتي، أي سيوران، كنت مفتونًا بالفشل، وما يعقبه من ندم، وهو ما عبر عنه في كتابه "على ذرى اليأس". إنه غنوصي ذو صفاء ووضوح فكري ينكر الخلاص، ومتصوف دنيوي متخلص من الأشكال الماورائية. فإذا النشوة عنده حضور كلي من دون موضوع وجد: خواء ممتلئ، وهذا اللاشيء، عند سيوران، هو كل شيء. فلا مجال لاستعادة الحالة الفردوسية الأولى. واليائس من خلاصه يصير عالم جمال[٢].

تأدت هذه الغربة الميتافيزيقية لسيوران إلى نوع من "العزلة" وهذه العزلة ليست نوعًا من البعد عن الحياة، ولكنها نوع من التفرد.

ج- العزلة والعبث:

يعني سيوران بالعزلة أن يغترب الفرد في الفراغ، وقد أحل نفسه من كل حكم مسبق، فيصبح ذلك الإنسان غير الصالح للاستعمال بامتياز، الذي لا يستنجد به أحد ولا يمشي جانبه أحد، لأنه يقبل بكل شيء ويرفض كل شيء باللامبالاة نفسها. هو من ثم أقل خطرًا من حشرة شاردة، لكنه مصيبة بالنسبة إلى الحياة،

---

[١] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ص ٩، ١٠.

[٢] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ص ٣، ١٠.

لأنها سقطت من قاموسه صحبة أيام الخلق السبعة، لكنه ينكر البدايات المحمومة، وعلى رأسها بدايته، غير محتفظ من العالم إلا بذاكرة باردة وندم مهذب[١]. فالعزلة إثارة رغبة أنطولوجية لكينونتنا[٢]. ومن هنا تأتي علاقة العزلة بالعبث، فالكينونة هي في الوقت ذات اللاكينونة في إطار اللامعنى واللاهدف.

أنا الآن وحدي .. ماذا عساي أتمنى أفضل؟ لا وجود لسعادة أكثر كثافة. بلى، سعادة أن أنصت، من شدة الصمت، إلى وحدتي وهي تنمو[٣]. فلا يستطيع أحد أن يحرس عزلته إذا لم يعرف كيف يكون بغيضًا، هكذا يرى سيوران[٤]. إننا لا نفعل وسائل هزيمة العزلة إلا مضاعفتها. ونحن نرغب في الابتعاد عن ذواتنا عبر الحب، أو الثمالة، أو العقيدة، فلا ننجح إلا في تقوية هويتنا بشكل أكثر عمقًا. وأهم ما قال سيوران في العزلة هو أنها لا تعلم كيف يمكن أن تكون وحيدًا، بل كيف تكون المنفرد[٥].

وعلى هذا فقد رفض سيوران "الحشد". إن التاريخ، بالنسبة لسيوران، مصنع يدوي للمثل العليا، ميثولوجيا متقلبة المزاج، هيجان الحشود والأفراد، إحجام عن تصور الواقع كما هو، ظمأ قاتل إلى الأوهام[٦]. ويرى سيوران أنه كلما أجهزنا على إحساسنا بالخزي تعرينا من أقنعتنا إلى أن يأتي يوم تتوقف لعبتنا. لا خزي بعد، لا قناع، لا جمهور. لقد أفرطنا في إحسان الظن بوفرة أسرارنا وبحيوية شقائنا[٧].

---

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١٠٧.

[٢] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ٨٠.

[٣] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ٣٠.

[٤] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ٩٩.

[٥] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ص ٥، ١٠٨.

[٦] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١٤.

[٧] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ٧٥.

إن الحياة، عند سيوران، لا تتحقق إلا في التفرد، هذا الأساس الأخير للعزلة. بناء على ذلك ليس من كائن إلا وهو وحيد بالضرورة لكونه فردًا. إلا أن الأفراد ليسوا وحيدين جميعًا بنفس الطريقة ولا بنفس الكثافة. لكل موقعه في درجة مختلفة من سلم العزلة. فالعزلة ليس لها مرجع مباشر من ذلك. أن تهجر كل شيء دون أن تعلم ما يمثله هذا الكل. أن تنعزل عن محيطك. أن تصد، في نوع من الطلاق الميتافيزيقي، الجوهر الذي جُبلت منه والذي يحيط بك ويحملك. من الذي يستطيع أن يتجاسر على الكينونة دون أن ينال جزاءه؟ وعن طريق أي تحدٍ؟ من الذي في وسعه أن يصفي شرط تنفسه؟ وبواسطة أي جهود؟[١].

غير أن من شأن إرادة تلغيم أس كل ما هو موجود أن تنتج رغبة في النجاعة السالبة، قوية وعصية على الإدراك، فلا أحد يرى أنك تعيش جنازتك بشكل مسبق، وأن موتك لا يضيف شيئًا إلى أمرك الواقع لامحالة، ذلك لأن خائن الكينونة، في رأي سيوران، ليس له من يحاسبه سواه: أنت مواطن محترم كما كنت. تتمتع بامتيازات المدينة ويوقرك نظراؤك وتحميك القوانين وتستحق التقدير مثل الآخرين، وأنت غير معرضٍ للحظر ما لم تذم شخصًا أو مؤسسة[٢].

ليس من قانون يحمي الواقع، لكن القوانين كلها تعاقبك على أدنى ضرر يلحق بمظاهر الواقع. من حقك أن تقوض الكائن في المطلق لا كائنًا بعينه. في وسعك أن تدمر بشكل شرعي قواعد كل ما هو موجود، لكن السجن أو الإعدام في انتظارك عند أدنى اعتداء على القوى الفردية. ومن ثم فلا ضمانة للكينونة، لا وجود لإجراءات قانونية ضد الخونة الميتافيزيقيين[٣].

---

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ٩٨.

[٢] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ٩٩.

[٣] المصدر نفسه، ص ٩٩.

ربما كان في داخل كل خائن عطش إلى الخزي، وربما كان اختيار أسلوب الخيانة مرتبطًا بدرجة العزلة التي يطمح إليها الخائن. من الذي لم يشعر بالرغبة في اقتراف جرم فريد يقصيه عن سائر البشر؟ من الذي لم يطمع في ارتكاب شناعة تقطع إلى الأبد كل صلة بالآخرين، كي يصدر في حقه حكم نهائي ويبلغ من ثمة سكينة الهاوية؟! ويستطرد سيوران في حديثه الذي يعبر عن حريته التي يجد لها متسعًا من عزلته، ليتساءل: ألا نفك الارتباط مع الكون بحثًا عن سلام خطيئة لا تغتفر؟ يهوذا بروح بوذا، يا له من قدوة لبشرية قادمة وآيلة إلى الزوال![1].

وهنا نشتم رائحة العبث في فلسفة سيوران التي لا تجد لها مثوى في هذه الدنيا إلا العزلة، وهي تعبر عن حرية عبث تبغي الكينونة واللاكينونة في الوقت ذاته، الكل ولا شيء في الوقت ذاته، فهي إلى زوال، ومن ثم فهي لا تبحث عن هدف سوى أنها تتمنى أن لو لم تكن ولم تولد أصلاً، إنها مأساة الولادة التي يعاني منها سيوران على الدوام، إنه لا يكره الحياة، وإنما يعانيها ويعايشها كما هي، بكل مرارتها، والدليل على ذلك أنه يرفض الانتحار، ولكنه في المقابل لا يسعى ليكون ذاتًا لها مستقبل، لأن المستقبل يتلاشى، كما يتلاشى الزمن، ولا أمل فيه إلا تلك اللحظة التي يشعر فيها بسعادة عابرة، كما يشعر بكل متناقضات الحياة، التي تسعى للأهداف سوى أنه يعيش الحياة بطريقته: عبث، عزلة، حرية صامتة تبتغي الوجود في مكان آخر، ربما يكون العدم، الذي ينجم عنه السأم من هذا الوجود.

ولذا ترتبط العزلة بالعبث، وفي هذا يقول سيوران: حلمت بفصول ربيعية قصية بشمس لا تضيء إلا زبد الموج ونسيان أني ولدت. بشمس تعادي الأرض وتعادي وجيعة ألا نجد في كل مكان سوى الشوق إلى أن نكون في مكان آخر. ويستطرد سيوران متسائلاً: من الذي فرض علينا قدرنا الأرضي؟ من الذي قيدنا إلى

---

[1] المصدر نفسه، ص ٩٩.

هذه المادة الكئيبة، هذه الدمعة المتحجرة التي تتحطم عليها دموعنا، نحن مواليد الزمن، بينما هي العريقة في القدم، قد سقطت من رعشة الرب الأولى[١].

إن مفهوم العبث عند سيوران يمتد لحيرة لانهائية، فهو يمقت النهار والليل في هذا الكوكب، ويشعر أنه يعيش خلف عالم بلا مناخ، لا مكان فيه للساعات ولا لذلك الخوف الذي يجعلها تتورم. إنه يبغض الفانين تحت وطأة العصور والزمن. فأين اللحظة التي لا غاية لها ولا شهوة؟ أين ذلك الشعور الأصلي الذي لا يتأثر بهواجس السقوط والحياة؟ وهنا يعبر سيوران: بحثت عن جغرافيا اللاشيء، عن بحار مجهولة، وعن شمس أخرى خالصة من فضيحة الأشعة الخصبة. بحثت عن هدهدة محيط شكاك تغرق فيه المسلمات والجزر، هو سائل المعرفة الشائع المخدر واللذيذ المنهك. هذه هي الأرض – خطيئة الخالق! لكني لم أعد أرغب في التكفير عن خطايا الآخرين. أريد، أي سيوران، أن أشفى من ولادتي في احتضار خارج القارات، في صحراء سائلة، في غرق غير شخصي[٢].

وهنا يرفض سيوران (مثل نيتشه) مفهوم الشعور بالخطيئة والذنب والتكفير، ويرفض أن يعيش الإنسان حياته بشعور الذنب، مكفرًا عن خطيئة آدم، بل إن سيوران يرى أن الإنسان كي يعيش، فعليه أن ينطلق في هذه الحياة نحو الموسيقى والفن، تلك المتع التي لا تخلو من صوفية ملغزة، ولكنها صوفية دنيوية، لا دينية، تجعله يستمتع بحياة تحمل في طياتها كل المتناقضات، مثلما أن آراء سيوران تحمل تناقضًا. فهو يقول رأيًا، وربما يقول بعكسه في وقت آخر. ولذا فإن فلسفته وفق مزاجه، تتقلب كما يتقلب مزاج ذلك الفيلسوف.

ثمة إنذارات أكثر التباسًا وإرباكًا تظهر لإبلاغنا بقرب طردنا من الحضن الزمني. يقترب منا القرف، ذلك الإحساس الذي يفصلنا فسيولوجيًا عن العالم، فإذا

---

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١٠٠.

[٢] المصدر نفسه، ص ١٠٠.

نحن نكتشف كم أن صلابة غرائزنا أو متانة روابطنا قابلة للتدمير. وكما يرى سيوران فإننا حين نكون أصحاء، يشغل لحمنا وظيفة الصدى بالنسبة إلى خفقان الكون، ويتكفل دمنا بترجمة إيقاع ذلك الخفقان. وهذا هو تفسير ما يعنيه سيوران بالإحساس الفسيولوجي تجاه العالم. أما في حالة القرف الذي يتربص بنا مثل جحيم افتراضية قبل أن ينقض علينا فجأة، فإننا لا نقل انفرادًا في الكل عن وحشٍ من تخيل علم عجائب العزلة. فلا شيء معافى فينا إلا ذاك الذي يتيح لنا نحن ألا نكون نحن على التعيين: قرفنا هو الذي يجعلنا نتفرد. أحزاننا هي التي تمنحنا اسمًا. خساراتنا هي التي تتيح لنا امتلاك ذاتنا. نحن لسنا إلا بفضل مجموع خيباتنا[١]. وهنا يتجلى مفهوم العبث بأقصى معانيه عند سيوران.

لِمَ لا يمكننا البقاء منغلقين فينا؟ لِمَ نواصل التعبير والتمهظر ساعين إلى إفراغنا من كل محتوى، ساعين إلى تنظيم مسار فوضوي ومستعصٍ؟ سنكتفي فقط بالتلذذ باضطراباتنا، بكل اهتياجاتنا الحميمة. هكذا سوف تتداخل تجارب متعددة ومختلفة لتولد تفاعل خصوبات أفضل، شبيهة بتلاطم أمواج البحر أو بالذرة الموسيقية. أن تكون ممتلئًا بنفسك فذلك لا يعني أنانية، بل الثراء مقدودًا من خلال لاتناهٍ داخلي وتوتر متطرف، وهو ما يعني أن نحيا بكثافة، إلى درجة الإحساس أنك ميت بالحياة. من النادر جدًا امتلاك هذا الإحساس، والأغرب، كم نحن مضطرون أن نحيا بالصرخات(بالعواء). أشعر أنه يلزمني أن أكون ميتًا بالحياة وأتساءل إن كان هناك معنى من البحث عن تفسير لذلك. حيث تختلج الروح في داخلك بتوتر لامتناهٍ[٢].

أجهل تمامًا لماذا يجب فعل شيء ما هنا على هذه الأرض، لماذا يجب أن يكون لنا أصدقاء وأمنيات، آمال وأحلام. أليس من الأفضل الانسحاب بعيدًا عن

---

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١٠١.

[٢] إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، ص ٩.

العالم، بمنأى عن كل ما يصنع صخبه وتعقيداته؟ هكذا نحن ننكر الثقافة والطموحات، نخسر كل شيء في المقابل. لكن ما الذي يمكن الحصول عليه في هذا العالم؟ بالنسبة إلى بعضهم، ليس ثمة ربح ذا قيمة، لأنهم وحيدون وتعساء ولا علاج لهم من ذلك. نحن كلنا منغلقون على أنفسنا في علاقتنا مع الآخرين، حتى وإن كنا منفتحين إلى درجة قبول الآخر أو استقراء أعماق روحه، وحدنا في الحياة نتساءل: أليست العزلة في الاحتضار هي رمز الوجود الإنساني ذاته. هو عجز محزن لعدم القدرة على الحياة والموت وسط المجتمع. هل هناك تعزية ممكنة في اللحظة الأخيرة؟ من الأفضل الموت وحيدًا ومتروكًا إذن، دون تصنع أو مظهر خادع، لست أشعر سوى بالتقزز، تجاه أولئك الذين يغالون في مشاعرهم ويفرضون مواقف تستدعي التعاطف معهم أثناء الاحتضار[١].

لا تكون الدموع حارة إلا خلال العزلة. كل أولئك الذين يحيطون أنفسهم بالأصداء ساعة الموت إنما يفعلون ذلك بسبب الخوف وعدم القدرة على مواجهة لحظتهم الأسمى. في تلك اللحظة الجوهرية يريدون نسيان موتهم. يتسلحون بالبطولة، ليغلقوا أبوابهم ليتحملوا هذه المشاعر الرهيبة بوضوح صافٍ وذعر لامتناه. فنحن متروكون، معزولون، لا شيء يعبر إلينا ... الموت الأعمق، الموت الحقيقي، هو الموت بالعزلة، حين يكون النور علة الموت ذاته. مثل هذه اللحظات تعزلك عن الحياة، عن الحب، عن السمات، عن الأصدقاء، عن الموت أيضًا. نتساءل إذن ألا يوجد شيء آخر غير عدم العالم وملكك الخاص[٢]. وهنا يتجلى العبث في أوضح معانيه.

يجري الحزن مجرى الدم، هذا ما يقصده سيوران، إذ بينما يجري هذا الحزن في الدم بحرية ولا أحد يوقفه! كما أن الدموع تذوب في الدم في تنهيدة طويلة

---

[١] المصدر نفسه، ص ١٣.

[٢] إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، ص ١٤.

وبعيدة. فنحن بالأساس منكوبون ولسنا حزانى فقط، ذلك أننا لا نعرف فخر المصير البائس، وإنما نعرف فقط ظلال القدر المرير. والجنون هو سقطة الأنا في الأنا، هو خنق الهوية. لا شيء يمنع من أن نكون أنفسنا بلا حدود، حين نفقد أذهاننا. والحزن هو ذاك اللامعرف الذي يتدخل بيني وبين الحياة. بما أن هذا اللامعرف هو مقاربة هشة للامتناهي. ومن هنا تخون الجبال عزلتها بمجاورتها للسماء، وتخون الصحراء عزلتها بشعرية السراب. وحده قلب الإنسان يبقى إلى الأبد مع نفسه في فراغ الحزن[١].

يشبه الفراغ الداخلي موسيقى بلا أصوات، غناءً بلا أصوات أيضًا، تتدخل تموجاته اللاصوتية خفية بيننا وبين العالم، فاصلة إيانا عن الحياة في خضم العيش، وعن الموت في خضم الموت. أليس الله شيئًا آخر غير غواية لإشباع حاجتي اللامتناهية للموسيقى. من يعشق الموسيقى حقًا لا يبحث فيها عن ملاذ، بل عن نكبة نبيلة ألا يتعالى الكون من أجل تمزقه. نحن في الله أكثر عزلة من أن نكون داخل سقيفة باريسية. إننا نرغب في نوستالجيا الموت، وليس الموت تحديدًا، لأننا لم نبلغ حافة القرف من الحياة، وما زلنا فخورين بخطأ وجودنا. إذ ليس هناك من لذة إلا في هذه النوستالجيا[٢].

لماذا يفهم سكير بشكل زائد؟ لأن السُكْر معاناة. لماذا يرى مجنون بشكل زائد؟ لأن الجنون معاناة. لماذا يشعر من هو في العزلة بشكل زائد؛ لأن العزلة معاناة. وبماذا تعرف المعاناة كل شيء؟ لأنها ذهن. لا تكشف لنا الأخطاء والعيوب والآثام الجوانب الخفية للطبيعة من خلال التماعات المتعة، بل من خلال تمزق اللحم والذهن، من خلال تجلي السلبيات، سيصبح نهرًا من الدم ذاك الذي يعرف كل شيء. ويسقط الناس في اتجاه السماء، لأن الله هاوية منظور إليها من

---

[١] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ص ٩٥، ١١١ – ١١٤.

[٢] المصدر نفسه، ص ص ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣.

الأسفل، ومن ثم فإن كل المياه لها لون الغرق في الأزرق السماوي للصباحات، حيث إن لون السماء (الأزرق) هو لون الكآبة، والغرق معناه الموت، أو السقوط في الموت، حيث تعبر السماء عند المساء، وهي تتحول من الأزرق إلى الرمادي بشكل جلي عن الحداد غير المكتمل للذهن[١]، إلى ما يعبر عنه سيوران بالغسق.

د- الكآبة .. الضجر .. السأم:

كان سيوران يعاني باستمرار من حالة أرق، فلا يستطيع النوم، فكان هذا كثيرًا ما يسبب له تعبًا جمًا. فكان يرى أن القلق القوي يحافظ على مناخ جنائزي، حيث يحتاج الفرد لبؤس جوهري[٢]. ففي ظل هذه الحالة من الأرق ماذا كانت تمثل الذاكرة بالنسبة لسيوران؟ إن الوظيفة الوحيدة للذاكرة تكمن في مساعدتنا على النوم من أجل إنقاذ الماضي، يمثل الندم ملجأنا الوحيد ضد مناورات النسيان، وماذا يكون الندم في جوهره غير الذاكرة وقد انتقلت إلى الهجوم؟ وماذا يكون الندم في جوهره غير الذاكرة وقد انتقلت إلى الهجوم؟ عندما يُحيي الندم وقائع عديدة ويحورها كما يريد، يقدم لنا كل الصيغ المطلوبة لحياتنا، بحيث يكون من الصحيح القول بأنها تبدو لنا، بفضل الندم، مثيرة للشفقة وزاخرة في آن[٣].

وما المقصود بوجود متكامل، وما معنى المعرفة؟ لا مراء في أن المقصود هو الاحتفاظ بظمأ للحياة عند ساعات الغسق[٤]. والغسق يعني غروب الحياة بالموت، وانطفاء لنورها. إذن الموت غسق وانطفاء لنور الحياة.

كما ينفي سيوران الاستمرار والتقدم في الهدف، إذ كيف يمكن التوسع غدًا في فكرة عالجناها البارحة، بعد مرور ليلة لا يبقى المرء هو ذاته، ومن الغش ادعاء

---

[١] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ص ١٥٤، ١٥٦، ١٦٩.

[٢] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ١٦٠.

[٣] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ص ٢١، ٢٣، ٢٤.

[٤] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ٣٩.

الاستمرارية. فلا مجال إذن للتقدم في المستقبل، كما يرى سيوران. ولذا يعبر عن ذلك في شذرة له: لو قيض للأمواج أن تفكر لاعتقدت أنها تتقدم، ولها هدف، وتتطور، وتعمل لخير البحر، وقد لا تتخلف عن وضع فلسفة لا تقل بلاهة عن اندفاعها. كما يعترف سيوران بأن الشذرة نمط من الكتابة مخيب للآمال بلا شك، مع أنه الوحيد النزيه[١].

يغدو الإنسان المتعب من نفسه سائرًا ومتكلمًا في النوم، يرنو إلى الضياع في صحاري الله. وهنا نرى سيوران ينظر إلى الكآبة على أنها الزمن، الكآبة ، ذلك المرض الذي يجعل المرء ينظر للأشياء كما هي. ولا شيء ينال من الكآبة عند سيوران، إنها لا يمكن أن تتوقف إلا مع آخر قطرة من دمنا[٢].

يرى سيوران أن الكآبة تكفر عن هذا الوجود، غير أنها هي التي تفصلنا عنه. إذن لماذا نحن هنا؟ نحن هنا لأجل أن نتعذب، وليس لأجل أي شيء آخر[٣]. لذا يرى سيوران أننا مدينون للتعاسة بكل ما نبنيه أبعد من الكينونة الخام، وبكل القوى المختلفة التي تمنح العالم ملامح مميزة. فالتعاسة: مهندس التنوع والعنصر الذي يمكن إدراكه في أعمالنا. ينتظرنا المستقبل ليضحى بنا. ولا يسجل الذهن بعد ذلك سوى تصدع الكينونة. وهنا يعبر سيوران بأننا عباد التعاسة، حين نتخذ منها عامل الصيرورة وكنهها، فإننا نسبح في نقاوة القدر المحتوم، في فجر الكارثة، في جهنم ولود ... أما حين نخشى أن نعيشه بعدها وقد خيل إلينا أننا استنفذناها، فإن الكينونة تكمن وتكف عن كل صيرورة. فإذا نحن نخاف أن نتكيف

---

[١] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ٢٤.

[٢] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ص ١٥، ٥٧.

[٣] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ص ٨٥، ٨٧.

مع الأمل من جديد، أن نخون تعاستنا، أن نخوننا[١]. تلك هي آراء سيوران في التعاسة باعتبارها جوهر حياتنا.

يرى سيوران أن اللون الأزرق للسماء هو لون الكآبة، فيعبر عن ذلك: في كل مرة أرفع عيني نحو السماء، لا أستطيع كبح جماح إحساسي بخسارة لامتناهية. ماذا لو ذهبنا في حرب صليبية ضد الأزرق! بأي جموح سأذهب وأدفن نفسي في لون الندم الهائل! [٢].

فما كان يمكن أن يكون سيوران إلا غريبًا في هذا العالم الموحش، حيث ينبع ضجر الإنسان وتذمره حيال الوجود من هذا الإحساس المطلق بالتيه. ومن ذات الإحساس نشأت الآلهة والديانات والفلسفات. فما الواقع، بالنسبة لسيوران، سوى قمامة، نسخة باهتة لممكن ما، أغنى وأسعد. لذلك تعثر على حنين يسري في كل ما كتب. حنين إلى مطلق مستحيل المنال، حنين إلى ما قبل النشأة. يقول سيوران: "حينما عرفت بأنني ولدت، انتهى كل شيء بالنسبة لي". ولذا يتحسر سيوران بمرارة جراء هذه "المعرفة" التي هي مصدر تمرده وشكواه الدائمين، ويرى أن الموت الحقيقي للإنسان هو ولادته. أليست الولادة سقوطًا للروح في قبر الجسد. هذا الإحساس العميق الدائم بالسقوط في فخ التشخيص هو منبع كل العسر الميتافيزيقي الذي يعصف بالذات المفكرة. يخيل لقارئ فلسفة سيوران أنه عاش منفيًا في الوجود، تحاصره أفكار اللاخلاص من كل جانب. فيبدو من خلال كل ما دوَّن كأنه كان مكبلاً بما يشبه اللافرار. فلا آمن بالبعث المسيحي، ولا رغب في أن يفنى مع

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١١٥.

[٢] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ١٣٣.

البوذية[١]. خاصة وأن هدف الإنسان هو أن ينوب عن الله في ألمه، على الأقل في المسيحية[٢].

إن الضجر الذي يبدو وكأنه يعمق كل شيء، لا يعمق في الواقع شيئًا، بالنظر إلى أنه لا يتوغل نازلاً إلا في ذاته، ولا يسير إلا في فراغه الخاص[٣]. والسأم هو شكل من التوازن غير الفار بين فراغ القلب وفراغ العالم، التوازن بين الفراغين الذي يعود إلى السكون[٤]. السأم هو صدى الزمن الذي يتمزق في داخلنا. إنه افتضاح الفراغ، ونضوب الهذيان الذي يسند الحياة أو يبتكرها. الإنسان خالق قيم، وهو من ثم الكائن الهادئ بامتياز، فريسة الاعتقاد بوجود شيء ما. كيف نخترع دواء للكينونة؟ كيف نضع حدًا لهذا التعافي الذي لا حد له؟ وكيف نُشفى من ولادته؟ السأم هذه التفاهة التي لا شفاء منها[٥].

ما بين السأم والوجد تجري كل تجربتنا مع الزمن. واليأس موثق، والأمل وهم وتخييل. فنحن عبيد ونبقى عبيدًا، طالما لم تشف من عادة الأمل. فالأمل هو الشكل السوي للهذيان. فأن تتألم يعني أن تكون أنت ذاتك تمامًا، أن تبلغ حالة عدم تطابق مع العالم. فالألم يجعلك تعيش الزمن في تفاصيله لحظة بلحظة. وكل ألم هو فرصة، على المستوى الروحي فقط. وما الألم إلا إحساس لا يريد الزوال، إحساس طموح. إنني لا أقاوم العالم، إنني أقاوم قوة أكبر، أقاوم تعبي من العالم، ومهمتي أن أقتل الوقت، ومهمته أن يقتلني أيضًا، لا خلاف بين القتلة. إنك ما إن تكف عن التألم حتى تكف عن الوجود، ذلك أن حالة العافية هي حالة عدم

---

[١] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ١٠.

[٢] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ١٥٢.

[٣] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ٣٠.

[٤] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ٧٩.

[٥] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ص ٢٨، ٣٠.

إحساس، وربما كانت حالة لاواقع. وكما يعبر سيوران: لندع الليالي تدفن الليالي. كما أن حد كل ألم ألم أكبر منه[١].

خلاصة الأمر إن الألم يجعلك تعيش الزمن بتفاصيله لحظة بلحظة ولا يكون صاحب عمق من لم يكابد ولم يعانِ. كما أننا نتحرر بفضل آلامنا وحدها. والسعيد من فقد كل أمل، فالأمل عذاب لا يطاق، واليأس نعيم عظيم، اليأس هنا بمعنى العبث، واللامعنى. أما الكآبة فينظر إليها على أنها الزمن، ذلك المرض الذي ينظر للأشياء كما هي، وأن الضجر ينجم عن إدراك بطلان الذات، والسأم هو دواء الكينونة الذي لا شفاء منه، وأخيرًا فإن الكينونة في إطار اللامعنى جهد في اتجاه ما لا معنى له. ذلك هو مفهوم العبث عند سيوران.

ولنتساءل: هل معنى تجربتنا العميقة في الألم والكآبة والضجر والسأم أن سيوران يشجع على فكرة الانتحار؟ أم أنه يرفضها؟ والإجابة هي أن سيوران يرفض فكرة الانتحار كما سيتضح مما يلي.

هـ- رفض سيوران للانتحار:

يوضح لنا سيوران أنه بعد أن أفسد الإنسان الأبدية الحقة، سقط في الزمن، حيث تمكن من العيش. إن عملية ذلك السقوط والتكيف تُدعى التاريخ. لكن ثمة سقطة أخرى تنتظره وتهدده، وإن كان يصعب تقدير مداها. هذه المرة لم يعد الأمر يتعلق بسقوطه من الأبدية، بل من الزمن، والسقوط من الزمن يعني السقوط من التاريخ[٢]، وللتاريخ مجرى وليس له معنى عند سيوران[٣]، إن التاريخ هو الصيرورة المعلقة ... لابد من الاعتراف بأن الزمن يشكل عنصرنا الحيوي، وعندما يُنزع منها، نجد أنفسنا بلا سند في اللاواقع تمامًا، أو في قلب الجحيم، وربما في الاثنين

---

[١] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ص ١٣، ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٩، ٣٠، ٣٨.

[٢] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ١٩.

[٣] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ٧٩.

معًا، في السأم، تلك (النوستالجيا) الحنين الظامئ إلى الزمن، واستحالة اللحاق به والاندراج فيه، والإحباط عن رؤيته يتدفق هناك في الأعلى، فوق بؤسنا وشقائنا. لقد خسرنا الأبدية والزمن! والسأم هو اجترار هذه الخسارة المزدوجة[١].

اختار سيوران أن يواجه سقوطه وأن يلمسه ويتحسسه بالكتابة الساحرة المرة اللاعبة بحكمته المستظلة بخفتها المستنجدة بهشاشتها استنجادها بآخر ملجأ ممكن للإنسان، وهي كتابة جسدية، إنه لا يهرب من الموت، لكنه يرفض الانتحار. ويرى أنه لا ينتحر إلا المتفائلون الذين لم يعودوا قادرين على الاستمرار في تفاؤلهم. أما الآخرون، فلماذا يكون لهم مبرر للموت وهم لا يملكون مبررًا للحياة؟ أليس من عدم اللياقة مغادرة عالم وضع نفسه بهذا الحماس في خدمة أحزاننا؟[٢].

الحق أنه إذا كان العقل ينكر شهوة العيش، فإن اللاشيء الذي يمتد بالأفعال يمتلك مع ذلك قوة تتفوق على كل أنواع المطلق. إن عدم الانتحار هو الحلف الضمني الذي يعقده القانون ضد الموت. وهو ليس رمز الكينونة فحسب، بل هو الكينونة نفسها. إنه الكل. وهذا اللاشيء، هذا الكل، لا يستطيع أن يمنح الحياة معنى، يجعلها تواظب على ما هي عليه حالة عدم الانتحار[٣]. يرفض سيوران الانتحار، ويرى أن التخلص من الحياة حرمان من سعادة الاستهزاء بها. هذا هو الرد الوحيد الممكن على شخص يعلمك كيف يضع حدًا لحياته[٤].

يصير الإنسان معاصرًا لنفسه من خلال الموت. وعلى كل حال فإن الموت يُحدث شيئًا من النظام في اللامتناهي. أليس ذاك اتجاهه الوحيد. أما المنتحرون فهم مرعبون بسبب أنهم لم يوجدوا في الوقت المناسب، يقطعون الطريق

---

[١] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ١٩.

[٢] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ٦، ١١٣.

[٣] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ٣٧.

[٤] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ٥٥.

على مصير ما عوض تتويجه. وحين ينطفئون بملء إرادتهم، يكون الموت نهاية بلا غسق. إن ما ينقص الإنسان الحديث هو الثقافة الحميمة للانتحار، جمالية النهاية. لا أحد يموت كما ينبغي، وكل شيء ينتهي بالصدفة. وفي رأي سيوران أن المنتحرين أغبياء، ويطلق عليهم "أغبياء الموت البائسين"، فلو عرفوا كيف ينتهون في الوقت المناسب، لن ينقبض القلب لسماع "فعل يائس"، ولن نسمي شخصًا يبرز إنجازه الخاص بالـ "شقي"[١]. فالموت، كما سبق القول، غسق، أو غياب لنور الحياة.

هكذا نصبح شيئًا محرفًا باللامعنى، حيث تتأمل الطبيعة سكونها الأخير. ثم يستطرد سيوران في حديثه عن الموت: إنني لا أفكر في الموت. بل هو الذي يفكر فيّ. كل ما فيه من حياة يتنفس من خلالي، ومن جهتي لست موجودًا إلا من خلال زمن مدرك لأبديته. ولست أكون إلا بقدر ما يدافع الموت عن مطلقه، ويرفض التعالي. وينزل عن طيب خاطر نحو الإخفاق المؤقت. أبحث عن الحياة في الموت أيضًا، وليس لي هدف آخر غير اكتشافها باعتبارها ليست حياة. لو كانت الجثة الإلهية أكثر حياة، لكني ألقيت بنفسي بين ذراعيها من زمان. لكن الله أعفى قلة من الحيوات لأذهب للبحث عنها في صحرائه[٢]. تلك هي ملامح العبث.

و- الله .. المسيحية .. والتسكع في الأبدية:

هنا نتساءل عن موقف سيوران من الإله، ومن المسيحية، وكذلك من القديسين. أما فيما يتعلق بموقف سيوران من الإله، فهو بالنسبة له غير مجدٍ وغير محتمل: إلهي، لِمَ لا أميل إلى الصلاة؟ لا أحد في العالم أقرب مني إليك ولا أبعد. قليل من اليقين، وقليل من العزاء، هذا كل ما أطلب منك. لكنك لا تستطيع الإجابة، لا تستطيع، كما يرى سيوران أن كل ما له صلة بالأبدية ينقلب حتمًا إلى فكرة مبتذلة[٣].

---

[١] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ص ٧٧، ٨٤، ٨٥.

[٢] المصدر نفسه، ص ٨٦.

[٣] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ص ٤٣، ٤٤.

يبين سيوران موقفه من الإله كما يلي: إلهي، امنحني القدرة على عدم الصلاة أبدًا. جنبني حماقة العبادة. ابعد عني غواية الحب هذه التي قد تسلمني إليك إلى الأبد. ليمتد الفراغ بين قلبي والسماء. لا أرجو البتة أن تعمر صحاريّ بحضورك، ولا أن تخضع لياليّ لجبروت نورك. لا أطلب من قدرتك الكلية البلهاء إلا الجنون الذي قد يزين لي الاستماع إليها. هبني المعجزة الملتقطة قبل اللحظة الأولى. ذلك السلام الذي لم يسعك تحمله، والذي دفعك إلى تدبير ثغرة في العدم، لافتتاح سوق الأزمان هذه، وللحكم عليَّ بالكَوْن –بِذُلِّ الكينونة وعارها[١].

يرى سيوران أن الإله سقوط متعامد على هلعنا. خلاص يهوى كالصاعقة على مساعينا التي لا رجاء فيها ليخدعها. إبطال صريح لكبريائنا التي لا عزاء لها ولا رغبة لها في العزاء. تُدرج بالفرد إلى عطاله للروح بسبب الافتقار إلى القلق. لماذا يبدو الإله بهذه الدرجة من الكمد والوهن والطرافة المتواضعة؟ لماذا يفتقر إلى الأهمية والحيوية والراهنية، ولا يشبهها إلا قليلاً؟ هل ثمة صورة أقل تشبيهية وأكثر مجانية في بعدها عن الحقيقة من هذه؟ كيف أمكننا أن نبث فيه أشعة باهتة إلى هذا الحد وقوى خائرة إلى هذه الدرجة؟ أين تسربت طاقاتنا؟ أين انصبت شهواتنا؟ ومن الذي ابتلع إذن فائض وقاحتنا الحيوية؟[٢].

إلهي! لم يتبقَ لي إلا أنت! أنت أطلال العالم، وأطلالي أنا، أنا نفسي. أريد أن أضع نهاية ذهني فيك والانتهاء من اضطراباتي اللامجدية، أنت القبر الذي نحلم به خلال الساعات البئيسة للكائن، وأنت المهد الأسمى للأتعاب الهائلة[٣]. فإذا كان الرب يستنكف حقًا من الانحياز إلى طرف من الأطراف، فإني لن أشعر بأي حرج في حضوره، لفرط ما سيطيب لي أن أقلده، أن أكون مثله في كل شيء، كائنًا

---

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١٥١.

[٢] المصدر نفسه، ص ص ٢٠، ٤١.

[٣] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ١٧٨.

بلا رأي. ما هو العادي إذن؟ ما هو السليم من كل عيب؟ الأبدية؟ هي أيضًا ليست سوى عاهة إلهية[١].

سيظل الإله تحت رحمة ساعاتنا، هذا هو رأي سيوران في الإله. فإذا أحب سيوران المعرفة فإذا هو كلي الوجود، وإذا أحب القوة فإذا هو كلي القوة. ما إن تبدو لي الأشياء كامنة حتى يكون. ما إن تبدو لي الأشياء وهمية حتى تتبخر. ألف حجة تبرهن على وجود الإله، وألف حجة تدحضه. نعبده فإذا هو الكائن.نرفضه فإذا هو لاشئ. ليس في وسع الصلاة أن تؤمن له ديمومة كونية، ولذا سيظل دائمًا تحت رحمة ساعاتنا، كما سبق القول. لقد شاء له قدره أن يبدو غير قابل للتغيير في عيون السذج والمتخلفين وحدهم. لكن الفحص يكشف عنه النقاب. قضية بلا جدوى. مطلق غير معقول. وليّ المغفلين، إله المنعزلين، شبح، وفقًا لكونه يسلي ذهننا. أسخو فيُترع بالصفات. أسخط فتغمره النقائص[٢].

إنه غير قادر على الصمود أمام الفضول ولا أمام البحث. يقل غموضه. يتدهور لاتناهيه. يخبو سطوعه. تتضاءل مزاياه. إنه بذلة بالية لابد من خلعها: كيف يمكن الاستمرار –في التلفف بإلهٍ رث؟ وحده التوقان إلى الفراغ يصوننا من ذلك التمرين في الدناسة الذي يمثله فعل الإيمان. يا له من جلاء في فن المظهر وعدم الاكتراث بغليانناوكوارثنا! ولذا يكون التفكير في الإله، عند سيوران، والنزوع إليه ودعوته أو الخضوع له. حركات جسد مختل وعقل عاجز![٣].

يرى سيوران أنه ما من إنسان يخلص نفسه من سموم الزمن ليحتفظ بسموم الأبدية، فتلك هي ألعاب المتصوف الصبيانية. ويتحدث سيوران: قمت، كما هو مطلوب، باستعراض كامل لكافة الحجج السائدة لله. فبدا لي أن غيابه قد خرج من

---

[١] إميل سيوران: مثالب الولادة، ص ص ٣٠، ١٥١.

[٢] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ص ٢٣٠، ٢٣١.

[٣] المصدر نفسه، ص ص ٢٣١، ٢٣٢.

كل ذلك سالمًا موفورًا. إن له عبقرية غريبة في أن ينفي نفسه من كل أعماله. من ثم فإنني منذ سنوات وأنا أخرج على المسيحية على مرأى ومسمع، هكذا يرى سيوران العقيدة لامسيحية، فالعقيدة، كما يرى، تدفع إلى الوقاحة ما أن تعتنقها حتى تنشط فيك غرائزك الشريرة. كل من لم يشاركك فيها يأخذ هيئة المهزوم العاجز الذي لا يستحق غير الشفقة والازدراء. لاحظوا "المغرمين الجدد" بالسياسة وخاصة بالدين، كل الذين أفلحوا في إدخال الله طرفًا في أحابيلهم. الذين انقلبوا على عقائد سابقة، أثرياء المطلق الجدد، وقارنوا ركاكتهم بالتواضع وحسن السلوك الذي يغلب على أولئك الذين شرعوا بعد في فقدان إيمانهم وقناعاتهم[١].

ما من بين كل ما أنتجه علماء اللاهوت، الصفحات الوحيدة الجديرة بالقراءة والعبارات الوحيدة الحقيقية، إلا تلك الصفحات التي خصوا بها الخصوم. كم تتغير نبرتهم، وكم تحتدم مواهبهم حين يديرون الظهور إلى النور ويفرغون إلى العتمة. لكنهم يعودون أخيرًا إلى ميدانهم الطبيعي. لكأنهم يعيدون اكتشاف أنفسهم من جديد. أخيرًا في وسعهم أن يكرهوا. لقد سُمح لهم بذلك. وهكذا يغيب ذلك الخرير الخلاب والاجترارات التربوية[٢].

هذا فيما يتعلق برأي سيوران في الإله، وفيما يلي نتبين آراءه في المسيحية، وفي ضعف المسيح، ثم يلي ذلك موقفه من القديسين.

أما المسيحية فيرى سيوران أنها خليط رائع لذلك هي أعمق وأنجس من أن تدوم أكثر. قرونها معدودة. يسوع يفقد طعمه يومًا بعد يوم. أصبحت تعاليمه مزعجة مثل وداعته وأصبحت معجزاته وألوهيته مثيرة للضحك. هو ذا الصليب يميل. أصبح مادة بعد أن كان رمزًا. واستعاد مكانه في نظام التحلل حيث تهلك الأشياء بلا استثناء، حقيرة كانت أم جديرة بالاحترام. ألفيتان من النجاح إلا أن

---

[١] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ١٢٨، ١٣٣.

[٢] المصدر نفسه، ص ١٣٢.

صبرنا عيل. ما إن أفكر في أني استطعت أن أكون –مثل الجميع– مسيحيًا صادقًا ولو لثانية، حتى تتملكني الحيرة. المخلص يضجرني. أحلم بكون معفى من السموم السماوية، كون لا صليب فيه ولا إيمان[١].

كيف يسعنا ألا نترقب تلك اللحظة التي تضمحل فيها الأديان من الوجود، فإذا الإنسان واضح أجوف، لا يتصرف في أي كلمة لتسمية أغواره؟ يصبح المجهول مملاً كالمعلوم: يفتقر كل شيء إلى الفائدة والمذاق. يمتد على أطلال المعرفة سبات قبري، يحولنا جميعًا إلى أطياف، إلى أبطال اللامبالاة الحالمين[٢].

وفي شذرة من شذرات سيوران، يتحدث عن المسيحية على النحو التالي: كم أن المسيحية مذنبة في كونها أفسدت الشكوكية. ما كان لإغريقي أن يجمع بين الأنين والشك. كان سيتقهقر قرفًا أمام تضخم الروح، التي أخذت منذ الصلب تُسقط عملية العقل. وحينما يتحدث إلى الله فيتذكر في إحدى شذراته: يا إلهي بدونك أنا مجنون، وبك أنا مجنون أكثر. ذلك أن أفضل الحالات ما لا يمكن أن ينتج من العبارات عند إعادة الاتصال بين فاشل التحت وفاشل الفوق. إنني حومت حول الإله تحويم الوشاة، تجسست عليه لما عجزت عن التوسل إليه، ومنذ ألفي عام والمسيح ينتقم منا لكونه لم يمت فوق أريكة[٣].

أما في حديثه عن ضعف المسيح فقد كان يرى أن للبشر غريزة دينية، أما اليوم فليس لهم سوى العقيدة، أو لا شيء مطلقًا. أكبر خطأ قامت به المسيحية أنها لم تعرف كيف تقوي الصلات بين الإنسان وخالقه، فهناك حلول كثيرة ووساطات متعددة. لقد جعلت دراما المسيح الآلام ضعيفة، وجردت القوة من أي حق في المسائل الدينية[٤]. ولذا رفض سيوران ذلك الضعف، شأنه في ذلك شأن نيتشه.

---

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ٢٢٩.

[٢] المصدر نفسه، ص ٢٣٠.

[٣] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ١٢٦، ١٢٨.

[٤] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ٩٧.

ولنتساءل: ما رأي سيوران في القديسين؟ وما سبب رفضه لهم؟

لقد جعلت الكنيسة من "القديس" وظيفة إدارية يتم الارتقاء إليها من خلال مناظرة داخلية تستوجب عدة شروط، ويتم تطويب الراهب قديسًا على مرحلتين، كما لو أن المرحلة الأولى هي مرحلة تربص في القداسة، ويمكن للكنيسة أن ترفض الترشح للتطويب. ومن هذا التمشي أفرغت الكنيسة "القديس" من كل ما له علاقة روحانية وشفافية صادقة مع الله بما فيها من تقرب روحاني بين المتعبد وربه وحولته إلى مجرد رتبة كنسية إدارية عليا(١).

ومن هنا يأتي موقف سيوران من القداسة بمفهومها الكنسي، ليستعرض فكرته عن المسيحية والمسيحيين وفكرته عن الله وهو في كل هذا يعمق تحليل فكرته عن الوجود وعن الكائن، ويرى أن الدين مثَّل عائقًا حقيقيًا منع تطور الإنسان الفكري وصادر كل أدوات تحليله المنطقية كما اغتال فيه جوهر روحه الداخلي عكس الفن الذي هو الوسيلة الوحيدة لشحن الروح بطاقات إيجابية من شأنها أن تجدد تطلع الإنسان للحياة والوجود عمومًا(٢).

يرى سيوران أن الكنيسة بسياساتها المختلفة عبر الأزمان قد قتلت الله في الإنسان، وأن الإنسان الذي ما زال متعلقًا بالله صار يبحث عنه في دموعه ويتقرب إليه من خلال هذه الدموع. ومن هنا يرى المسيحي نفسه مثل مسافر يعبر الأرض في وادي الدموع، ولا يرتاح إلا في قبر. ولهذا السبب يرى سيوران أنه من الأجدر وزن الدموع يوم الحساب الأخير عوض وزن الأعمال. ومن هنا فإن كتاب "دموع وقديسون" كتاب صادم بعيد النظر في عدة مسلمات وبداهات في علاقة الإنسان بالله(٣).

---

(١) إميل سيوران: دموع وقديسون، ص ص ٦، ٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧.

ليست المعرفة إذن هي التي تقربنا من القديسين، إنما هي يقظة الدموع التي تنام في أعمق أعماقنا. ومن خلال الدموع وحدها نعبر نحو المعرفة ونفهم كيف يمكن للمرء أن يصبح قديسًا بعد أن كان إنسانًا عاديًا. وفي هذا يعبر سيوران: سأظل طوال حياتي أطوف حول نواحي القديسين. في وقت ما، كان من الممكن مخاطبة إله خفي متى شئت، إله يُقبر تأوهاتك في عدمه. أما اليوم، ودونما عزاء لنا، ليس لنا من نشكو له أوجاعنا. لقد وهتبني الموسيقى الكثير من الجرأة في مواجهة الله[١]. فقد كان سيوران يرى أن رجل الكنيسة يرتكز إلى الخطيئة الأصلية، تلك الخطيئة هي مصدر رزقكم. من دونها تموتون جوعًا، ولا يبقى لكهنوتكم معنى. لماذا جاء المسيح لو لم يسقط الإنسان منذ البداية؟ ليفتدي من وماذا ؟[٢].

إن النقصان هو الذي يتيح لنا التفوق على الإله. ونحن لا نتجنب القداسة إلا خوفًا من خسارة هذا النقصان وخوفًا من مستقبل لا نظل فيه يائسين ...، مستقبل يتمخض في نهاية كوارثه عن آخر غير منشود: مستقبل الخلاص. الرعب من أن نصبح قديسين ... إن من حق المشغوف بنقائصه أن يتخوف من التجلي الذي قد تعدله آلامه. التلاشي من نور متعالٍ. من الأفضل عندئذٍ التوجه ناحية مطلق الظلمات، ناحية ملذات الغباء[٣].

لا مشهد يربك اللامؤمن من المولع بالتبذير والتبديد، مثل مشهد مجترّى المطلق هؤلاء ... من أين يستمدون كل هذا الإصرار على ما لا يمكن إثباته؟ وكل هذا الاهتمام بالمبهم والحرص على إدراكه؟ لا أفهم شيئًا من يقينهم وسكينتهم. إنهم سعداء وأنا ألومهم على كونهم كذلك. لو أنهم كرهوا أنفسهم على الأقل! لكنهم يقدرون "روحهم" أكثر مما يقدرون الكون. هذا التقييم الخاطئ هو مصدر ألوان من التضحية والزهد ذات اللامعقولية الهائلة[٤].

---

[١] إميل سيوران: دموع وقديسون، ص ص ٩، ١١.

[٢] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ص ٢٩، ٣٠.

[٣] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ٢٢٨.

[٤] المصدر نفسه، ص ٢٣٣، ٢٣٤.

وفيما نخوض نحن تجارب بلا سياق ولا نظام وفق الحظ وعلى هوى مزاجنا، لا يخوضون هم سوى تجربة واحدة، هي دائمًا التجربة ذاتها، بنفس الرتابة والعمق المنفرين. صحيح أن الإله هو موضوعها – لكن ما الذي يجعلهم يستمرون في الاهتمام به؟ هو دائمًا مماثل لنفسه، لامتناهٍ من نفس النوع، لا يتجدد بتاتًا. أستطيع أن أفكر فيه عرضًا، أما أن أشغل به الساعات! فلا[١]. فثمة رغد في الرذيلة أكثر مما في الفضيلة، وإنسانية في الانحلال أكثر مما في الصرامة. الإنسان الذي يحكم دون أن يؤمن بشيء: هو ذا نموذج مثالي لفردوس الانحطاط، وكل مطلق للتاريخ. الانتهازيون أنقذوا الشعوب، والأبطال دمروها[٢].

إن العيون لا ترى أي شيء، وإنما القلب هو الذي يبصر، فكيف إذن لا يمكن للقديسين أن يروا أبعد منا، فعندهم وحده القلب يبصر، كما أن الحقل البصري للعين محدود جدًا، فالعين تنظر دائمًا من الخارج، غير أن العالم موجود بالداخل، والاستبطان هو الوسيلة الوحيدة لبلوغ المعرفة. وبقدر ما يمكننا المقاومة في القداسة نثبت أن غرائزنا بخير. وشيئًا فشيئًا تظفر إمبراطورية السماء بفراغات حيويتنا. فالهدف من كل إمبريالية إلهية هو القضاء على كل حيوية[٣].

كما أن القديسين لم يكن يشغلهم أمر الكمال بما أنهم قد امتلكوه، وفي زمننا هذا، كما يرى سيوران، يتم التعامل مع وجهة النظر هذه بازدراء شديد. فباختياره للتراجيديا، تمكن الإنسان الحديث من التغلب على الندم لضياع الفردوس، ورأى أن عليه أن يعفي نفسه من الرغبة في الكمال. إن دراسات الكمال مجموعة من الدراسات المتفرقة والنظريات قام بها علماء لاهوت وقديسون ورهبان وفلاسفة مسيحيون لتفسير الإنجيل أو تحليل بعض جوانبه والتوسع في تحليل التجربة

---

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ٢٣٤.

[٢] المصدر نفسه، ص ١٤٩.

[٣] إميل سيوران: دموع وقديسون، ص ص ١١، ١٢.

الروحية للمسيح، وقد كان لها الأثر السيئ على النشوء الديني للرهبان، ومن هنا يأتي نقد سيوران لها باعتبار أن الإيمان لا يتم تلقينه ولا تدريسه[١].

حين يهيمن الإحساس بالموت على بداية حياة ما، يتحول الزمن إلى ما يشبه الارتداد نحو الولادة، واستعادة مراحل الوجود: موت، حياة، شقاء، وولادة، هكذا يصبح تسلسل مراحل هذا النمو معكوسًا. أليست هي حياة أخرى تلك التي تنبعث من تحت أنقاض الموت؟ بالحاجة إلى حب، إلى معاناة، إلى انبعاث، هكذا ننجح في الموت. ولهذا أصبحت التجليات نادرة جدًا. في آخر الأمر، كان في مستطاعنا أن نعفي أنفسنا من وسواس القداسة. ويتفرغ كل واحد منا لمشاغله، حاملاً نقائصه بكل فرح، حيث تخلف مخالطة القديسين وجعًا عظيمًا، فمجتمعهم سم تتضاعف حدته بمقدار عزلاتنا[٢].

ألم يفسدونا حين أثبتوا لنا بالمثال أن الدلائل تؤدي إلى جهة ما؟ لقد تعودنا على التأقلم دون هدف، مفتونين بنقائض أوجاعنا، سعداء بالتحديق في جراحنا، إذ ليس للموت معنى إلا عند أولئك الذين عاشوه بشغف أن يموت المرء ولا شيء يخلفه وراءه! فذلك الذي انتصر على الخوف من الموت نجح في حياته أيضًا، هذه الحياة التي هي الاسم الآخر لهذا الخوف[٣].

يرى سيوران أنه من المستحيل تكوين فكرة دقيقة في موضوع القديسين، فهم يمثلون مطلقًا ليس من المستحسن التعلق به، ولكن يجب رفضه. فكل موقف منا، هو محسوب علينا. فإن اتبعنا طائفة القديسين، ضاعت حياتنا، وإن صرنا ضدهم، فإننا نختلف مع المطلق رغم كل شيء، كنا سنكون أحرارًا جدًا لو لم يكن هناك قديسون! ولكن هل سيأتي يوم لن أستطيع أن أذكر فيه إلا الله، فالرجال والقديسون

---

[١] إميل سيوران: دموع وقديسون، ص ١٣.

[٢] المصدر نفسه، ص ١٤.

[٣] المصدر نفسه، ص ١٤.

هم أنفسهم لا اسم لهم. وحده الله له اسم. لكن ما الذي نعرفه عنه، عدا أن يأس يبدأ حين ينتهي كل الآخر. حيث تلقى الآخران على الروح بظلال الرهبانية. هكذا نبدأ فهم القديسين.. لقد أرادوا أخذنا نحو أقصى حدود أشجاننا، غير أنهم لم يستطيعوا، وهكذا تركونا عند منتصف الطريق في قلب المرارات والحسرات[١].

ثالثاً- الوجود والعبث:

أ- الوجود لا معنى له:

نعيد هنا نفس السؤال الذي طرحناه من قبل: هل الحياة تستحق أن تعاش؟ ونضيف عليه: هل للحياة معنى حتى يحياها الإنسان؟

يرى سيوران أن كلمة وجود لا تعني في الحقيقة أي شيء، مهما بدت في الظاهر غنية مغرية مثقلة بالدلالة. فالعالم عبث[٢]. وفي هذه النقطة يتفق كل من سيوران وكامي (١٩١٣ – ١٩٦٠) Albert Camus، ولكن ليس هناك من قيمة أو غاية لدى سيوران.

في وسع سيوران الاعتراف بأنه رجل عاطل، وأن هذا العالم لا روعة فيه. فأن نعيش حقًا يعني أن نرفض الآخرين، فالقبول بهم يتطلب التخلي عن الأشياء، كبح جماح الذات، التصرف ضد الفطرة، إضعاف النفس[٣]. إذ ليس للحياة أي

---

[١] إميل سيوران: دموع وقديسون، ص ص ١٦، ١٧.

[2] Albert Camus: The Myth of Sisyphus and other essays, trans by: Justino'Brien (New York, Alfred A Knoff, 1996) Art in philosophy the Big questions, Edit by: Ruth J. Sample Charles W., Mills and Sames P. Streba, Blackwell Publishing, U. S. A., 2004, p. 305.

وكذلك: إميل سيوران: مثالب الولادة، ص ٢٤٦.

وكذلك: Fredrick Olafson: *Albert Camus*, Art in Encyclopedia of Philosophy, Vol (2), Paul Edward, Editor in Chief, London, New York, 1960, p. 16.

[٣] إميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ص ص ٢١، ٢٤.

مبرر للوجود، وهذا هو المبرر الوحيد، ولذا فإن الحِكَم المقطعية التي تأتي على شكل شذرات لسيوران تتناول الأفكار المعتادة له: الخواء، الخيبة، انحطاط الكائن ... إلخ، وصولاً إلى الشيخوخة[١].

أعلن سيوران تمرده منذ طفولته، هو تمرد على الوجود وعلى الحياة عمومًا. ومن تلك الطفولة في قرية رازيناري كان صديقًا للموت، يرى نفسه دائمًا لعنة، ولعنة مخزية للوجود، بل للكون عامة. ورغم ما اتسمت به كتاباته من سوداوية ومن كآبة، ورغم يأسه اللامتناهي واحتقاره للأرض وللطريقة التي يعيش بها الناس، سوف يحيا أكثر من تسعين سنة، لكن متحررًا من كل الأوهام، متمردًا على العقود الاجتماعية، ضاربًا عرض الحائط بكل القيم، حتى أنه لم يتزوج ولم ينجب أولادًا، بل اكتفى بصديقة واحدة طول حياته إلى أن وافته المنية[٢].

ما من لحظة تمر دون أن يدهشني وجودي فيها تحديدًا. والاقتناع بأنه لا فائدة في أي عمل، في أي مصير. ولما كنت لم أعرف يومًا الهدف الذي أسعى إليه في هذا العالم، فإني دائمًا في انتظار ذاك الذي يستطيع أن يحدثني عن هدفه. يقول سيوران: "أي حافز على الضحك حين نسمع كلمة هدف ونحن نسير في جنازة. فنحن نموت منذ الأزل، وعلى الرغم من ذلك، لم يفقد الموت نضارته. هنا يكمن سر الأسرار. ولو طلب مني أن ألخص بأكبر قدر من الإيجاز رؤيتي للأشياء، وأن أختزلها في العبارة الأكبر اقتضابًا، لوضعت عوضًا عن الكلمات علامة تعجب، هكذا! نهائية[٣].

إن كون الحياة بدون معنى، هو السبب الوحيد الذي يجعلنا نتحملها. ومن ثم يكون عدم الوعي وطنًا، والوعي منفى. فنحن نعثر على حنين يسري في كل ما

---

[١] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ٨.

[٢] إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، ص ٥.

[٣] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ص ٩٩ – ١٠٢، ١٠٩، ١١٥.

كتب. حنين إلى مطلق مستحيل المنال، حنين إلى ما قبل النشأة "حينما عرفت بأني ولدت، انتهى بالنسبة لي كل شيء"، هكذا يعبر سيوران عن حسرته ومرارته. وهذه "المعرفة" هي مصدر تمرده وشكواه الدائمين. الموت الحقيقي للإنسان هو ولادته. أليست الولادة سقوطًا للروح في قبر الجسد؟![١].

إن سيوران شأنه شأن كل فلاسفة العبث الذين هم أكثر قربًا إلى القلب منه إلى العقل، بقى مقتنعًا أشد الاقتناع بعدم قدرة العقل على إضفاء معنى ما على الحياة[٢]. فلا يوجد العبث في العقل البشري وحده، أو في العالم الخارجي وحده، بل في وجودهما لبعضهما البعض. وينتهي العبث، مثل كل الأشياء الأخرى، بالموت. فالغد يأتي ويقربنا من قبرنا، وهو العدو الأخير للوجود الإنساني. فقد اكتسب "مصطلح العبث" دلالة واسعة ومتنوعة في الفلسفة الحديثة واللاهوت، والفنون، حيث عبر عن فشل القيم في تلبية احتياجات الإنسان. والكلمة لها أصلها اللغوي من الكلمة اللاتينية us-a-un absurd والتي تعني غير معقول، خارج المكان، أحمق، سخيف، متنافر... إلخ. وبالتالي فإن العبث يعني شيئًا يتميز بنقص واضح في المنطق أو الفطرة السليمة، أو التناسب، أو التوافق مع الأفكار المقبولة. وهذا ما هو غير منطقي أو متناقض منطقيًا، وبالتالي لا معنى له[٣].

ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم وخسر روحه! أن يربح العالم ويخسر روحه! أنا فعلت أفضل من ذلك .. خسرت الاثنين معًا[٤]. أن نكون أو لا نكون ..

---

[١] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ٨٠.

[٢] المرجع نفسه، ص ١٥.

[3] Pope John Paul: The notion of Absurdity and meaning of life in Albert Camus Existentialism, Major seminary Okpuno, Anambra, Nigeria, Nnamdi Zaikiew University, Awka, Nigeria, Open Journal of Philosophy, Scientific Research publishing, 2020, pp. 592, 530.

[٤] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ١٩.

لا هذا ولا ذاك. فليس لي من رغبة إلا وهي تثير فيّ رغبة مضادة. حتى أني، أي سيوران، مهما فعلت لا أرى أي قيمة إلا لما لم أفعل. وكون الحياة بلا معنى هو مبرر للحياة، فضلاً عن أنه المبرر الوحيد. فأنا لا أستطيع أن أتكلم على غير ما أشعر به، إلا أني، أي سيوران، لا أشعر بشيء في هذه اللحظة. كل شيء مُلغى في نظري، معلق بالنسبة إليّ، أحاول ألا أستمد من ذلك مرارة ولا عُجبًا[١].

يرى سيوران أنه من البديهي أننا موجودون في العالم كي لا نفعل شيئًا. إلا أننا نتصبب وننفث أنفاسنا في الهواء النتن، عوضًا عن أن نجرجر عفننا بلا اكتراث. التاريخ كله في حالة تفسح، تنتقل روائح عفونته في اتجاه المستقبل، فتركض ناحيته ولو من أجل الحمى الملازمة لكل انحلال. يقول سيوران: "لقد فوتت الإنسانية على نفسها أوان التحرر من وهم الفعل، وفوتت خاصة أوان الارتقاء إلى قدسية البطالة"[٢].

إن ما يتقادم فينا، وفق ما يراه سيوران في مقابل العبث، أكثر من غيره هو التمرد. أي أكثر ردود أفعالنا حياة. فالتمرد هو في جوهره، نوع من المواجهة أو التقابل الحاد بين الوعي الناصع وبني اللامعقول. يقول سيوران: "تموت فإذا أنت سيد العالم"[٣].

إن معرفة الذات هي أكثر المعارف مرارة، تبدو في الوقت نفسه أقل ما نُعنى به من معرفة. ما جدوى أن نضبط أنفسنا من الصباح إلى المساء متلبسين بالوهم، أن نعود بلا رحمة إلى جذر كل فعل، أن نخسر القضية في محكمة

---

[١] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ص ١١، ٣١، ٥٠، ١١٣.

[٢] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١٨.

[٣] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ص ٦٣، ٦٤.

And: Frederick Alafson: Albert Camus, p. 17.

لا قضاة لها سوانا[١]. وهنا يشير سيوران إلى أنه ليست هناك غائية في هذه الحياة. فبعد أن نموت لساعات، ها أنا فريسة الفراغ، الفراغ والخزي. إن "الجدي" ليس بالضرورة صفة من صفات الوجود – على العكس من "التراجيدي"، الذي يستتبع فكرة كارثة مجانية، بينما يوحي الجدي بحد أدنى من الغائية. والحال أن فتنة الوجود في ألا تكون له أي غاية. إن اللامبالاة هي الانتصار الأخير[٢].

إن الإنسان قائم كما هو، حتى إن ساير ذلك الموكب من التعاليم المقولبة المقترحة على حساب فضوله، المفروضة على حماسته وضلاله. لكن لكل كائن موقعه في الطبيعة، أما الإنسان فما انفك مخلوقًا يهذي ميتافيزيقيًا، تائهًا في الحياة، شاذًا في الخليقة. لم يعثر أحد على هدف صالح للتاريخ، لكن الجميع اقترحوا له هدفًا، وها هو عجيج من الأهداف التي بلغت درجة من التباين وغرابة الأطوار، جعلت فكرة الغاية تُلغى منها وتتلاشى في مادة فكرة مثيرة للسخرية.فلا غاية عند سيوران، منها لكن بما أن الحياة محرومة من اللامتناهي، كيف يمكننا أن نموت بدون غاية؟ فقد أصبح الإنسان يبحث عن الضياع في صحاري الله[٣].

كلما رأيت متشردًا سكرانًا، قذرًا، مهلوسًا، منتنًا، متهالكًا بقارورته على حافة الرصيف، خطر ببالي إنسان الغد وهو يجرب نهايته وينجح فيها. لا شيء مثل الخيبة يمنحنا الإحساس بأن نلمس أخيرًا ما هو حقيقي[٤].

ومع فقدان الغاية يرفض سيوران الانتحار، كما أدان كامي وبشدة فكرة الانتحار أيضًا. وقد اعترف كامي، كما اعترف سيوران، بأن الحياة أكثر مما يتحمله الفرد. فالعبث الذي يوجد في الوجود البشري، يستمر في تعذيب الإنسان

---

[١] إميل سيوران: مثالب الولادة، ص ٥٠.

[٢] إميل سيوران: اعتراف ولعنات، ص ص ٨٩، ٩٥، ١١٨.

[٣] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ٤٩.

[٤] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ص ٦٠، ٧٥.

حتى نهاية وجوده، وهو الموت. فالعبث ينشأ من مواجهة نداء الإنسان مع الصمت غير العقلاني للعالم. ومن ثم يمكن أن ينشأ الشعور بالعبث بطرق عديدة من إدراك عدم إنسانية العالم ولامبالاته. من إدراك زمنية الإنسان أو الموت الذي يكشف عن عدم جدوى الحياة البشرية، أو من عدم جدوى الصدمة عن إدراك عدم جدوى الحياة اليومية. فالعالم والحياة البشرية عبث، بمجرد إدراك طابعهما غير العقلاني واللامعنى بوضوح[١].

سيتم تحرير الإنسان يوم يتخلص من فلسفة الغائية ليفهم أن ظهوره حدث عارض، أو منحة مجانية، فلو لم تكن لدينا القدرة على تضخيم أسقامنا لاستحال علينا تحمل الحياة. ولو كان للتاريخ غاية، لكان مصيرنا يثير الرثاء، نحن الذين لم ننجز شيئًا. أما في هذا اللامعنى الشامل، فقد بات في وسعنا نحن الخطراء الصعاليك الذين لا جدوى لهم، أن نرفع رؤوسنا فخورين بأننا على حق. وعلى المتشائم أن يخترع كل يوم أسبابًا أخرى للاستمرار في الوجود. إنه ضحية من ضحايا معنى الحياة، كما يرى سيوران[٢].

لكن ماذا إذا كنا لا نريد التحرر من العذاب، ولا نرغب في الانتصار على التناقضات والنزاعات؟ ماذا إذا كنا نفضل فويرقات ما هو مكتمل، والجدليات الوجدانية، على أحادية مأزق رائع، الخلاص ينهي كل شيء وينهينا. من يجرؤ وقد خُلِّص على ادعاء أنه حي بعد؟ نحن لا نحيا حقًا إلا برفض التخلص من العذاب، وبضرب من الغواية الدينية بعدم التدين. حيث لا تتسلط فكرة الخلاص إلا على القتلة والقديسين، كما يرى سيوران، أولئك الذين قتلوا المخلوق أو تجاوزوه، أما الآخرون فإنهم يتمرغون سكرانين في اللاكمال. وهنا يتمثل خطأ كل عقيدة خلاص في إلغاء الشعر، الذي هو مناخ اللامكتمل، حيث يخون الشاعر نفسه حين يطمح

---

(1) Pope John Paul: The notion of Absurdity and meaning of life in Albert Camus Existentialism, pp. 528 – 529.
And: Albert Camus: The myth of Sisyphus, pp. 310-312.

[٢] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ٣٤، ١٠٩، ١٦٣، ١٧١.

إلى إنقاذ نفسه، ولذا فإن الخلاص، في نظر سيوران، هو موت النشيد وإنكار الفن والفكر. إذ كيف يمكن الإحساس بالتضامن مع النهاية؟[١].

بالنسبة لسيوران، كما أنه بالنسبة لكامي، لا يمكن تحقيق خلاص الإنسان في الله، بل يجب تحقيقه هنا على الأرض بيد الإنسان، وبالتالي فإن العالم، بالنسبة لهما، خالٍ من الله، لأن الله قد مات، ولم يعد موجودًا، ولم يعد بإمكانه ضمان وجودنا. وبالتالي يجب على الإنسان من أجل الوجود أن يقرر التصرف، ومنذ اللحظة التي يقبل فيها الإنسان أن العالم ليس له اتجاه. إن فن العبث محدود بمدى التجارب العديدة التي يشهدها العالم، وذلك لأن التفسير مستحيل. ويرجع هذا إلى حقيقة مفادها أنه لو كان الخلق والعالم واضحين لما وجد الفن. ومن الضروري أن نعرف ما إذا كان الإنسان، دون مساعدة من الفكر الأبدي أو العقلاني، قادرًا على خلق قيمه الخاصة دون مساعدة[٢].

س: إذن ما الذي يكشف ضحالة جدية الوجود؟

إن السخرية هي تمرين يعري الضحالة في جدية الوجود. فالأنا تحول العالم إلى عدم، ذلك أن السخرية لا تجلب الإحساس بالقوة إلا عندما يُلغى كل شيء. منظور السخرية خدعته لهذيان العظمة[٣].

فالتهكم هو تجربة لكشف فقدان جدية الوجود[٤]. علينا أن نكون ممتنين للحضارات التي لم تفرط في الجدية، تلك التي لعبت بالقيم واستمتعت بإنتاجها وتدميرها. هل تعرف خارج الحضارتين الإغريقية والفرنسية مثل هذا الوعي اللعوب في البرهنة على العدم الأنيق للأشياء. فلم تتمكن الحضارات الأخرى من استساغة السلوك المرح الذي يمنح الحياة اللاجدوى، إلا في طورها الأخير عند انحلال نظام

---

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ص ٥٢، ٥٣.

[2] Pope John Paul: The notion of Absurdity and meaning of life in Albert Camus Existentialism, p. 532.

[٣] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ٣٩.

[٤] إميل سيوران: دموع وقديسون، ص ٦٠.

كامل كان في كامل النضج والسيطرة على قوامها وعلى المستقبل، حين عرف السأم والضجر المستحق بكل شيء، والمستقبِل لكل شيء(١).

إن أزمة الضجر التي انتابتني في الخامسة من عمري سنة ١٩١٦. ذات ظهيرة لن أنساها، شكلت لديّ أول نقطة حقيقية للوعي. إلى تلك الظهيرة تعود ولادتي كائنًا واعيًا. ومن كنت قبل ذلك؟ كنت كائنًا لا أكثر ولا أقل. بدأت "أنايّ" بذلك الصدع وتلك المكاشفة معًا، كعلاقة على الطبيعة المزدوجة للضجر. فجأة أحسست بحضور اللاشيء في دمي، وفي عظامي، في أنفاسي، وفي كل ما يحيط بي، بل امتداد شاسع للزمن، الزمن الموميائي المحنط. ولولا الضجر، لما كانت لي هوية. بفضله وبسببه وُهبت إمكانية التعرف على ذاتي .. الضجر هو اللقاح مع الذات –من خلال إدراك بطلان الذات. فكل رغبة تبعث في داخلي رغبة مضادة، بحيث، مهما فعلت، لا أجد قيمة إلا لما لم أفعل. حقيقة أن الحياة ليست لها معنى: "أنا شمعة مطفأة"، هذه أصح عبارة قالها سيوران بخصوص تحوله الأخير(٢).

يعتبر سيوران قدرة الناس على الاستمرار في زيف الحياة بطولة عظمى. أن تستمر في العيش هو فعل احتجاج ضد الحقيقة، فالحقيقة، كما يقول سيوران، غير قابلة للتحمل(٣). فنحن نسمع من كل جانب أنه إذا كان كل شيء تافهًا، فإن إجادة القيام بما نقوم به ليست كذلك. والحق أنها كذلك للوصول إلى هذه الخلاصة وتحملها علينا أن لا نمارس أي مهنة. والحق أنني أسعف نفسي عن طريق الرثاء لكل فعل أقوم به، جيدًا كان هذا الفعل أو سيئًا(٤).

من الممكن للإنسان أن يختار بين أن يحكم على نفسه بالعبث، وما يصاحبه من عدم معنى أو أن يدافع عن حريته ويحمي نفسه من أهوال الحياة. إن

(١) إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١٨.

(٢) إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ص ٣٣، ٤٣.

(٣) حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ١٦.

(٤) إميل سيوران: مثالب الولادة، ص ص ١٧، ١٨.

ثورة الحياة عبثية ومضحكة وغير ذات أهمية. ولكن محاولة حل مشكلة العبث، لم يساعد في القضاء على العبث المتأصل في الحياة[١].

يشعر معظم الناس بشكل واضح ومستمر بأن الحياة عبث. إن عبثية حياتنا غالبًا ما يكون لها علاقة بالمكان أو الوقت. فنحن نقع في بقع صغيرة في اتساع الكون اللانهائي، وحياتنا مجرد لحظات، حتى على مقياس الزمن، ناهيك عن الكوني، سنموت جميعًا في أي لحظة. وإذا كانت حياتنا سخيفة بالنظر إلى حجمنا الحالي، فلماذا نكون أقل سخفًا إذا ملأنا الكون، إما لأننا أكبر أو لأن الكون أصغر. يبدو أن التأمل في صغرنا وقصرنا مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالشعور بأن الحياة لا معنى لها؟ فإذا كان هناك شعور فلسفي بالعبث، فلابد أن ينشأ من إدراك شيء عالمي، وهو الجانب الذي يتعارض فيه الادعاء الواقع حتمًا بالنسبة لنا جميعًا. وأن هذا الشرط ينشأ عن التصادم بين الجدية التي نتعامل بها مع حياتنا، والإمكانية الدائمة لاعتبار كل شيء نتعامل معه بجدية باعتباره تعسفيًا أو عرضة للشك والريبة[٢].

إن العبث واضح في تفاهة العمل البشري، لأن جهد الإنسان يبدو ضائعًا وغير مركز على أي غاية هادفة. إنه لا يفعل شيئًا للأبدية. إن عبثية العمل البشري لأن رتيب ولا غاية له. ففي عالم خالٍ من المعنى الأعلى، تصبح الطبيعة البشرية أقرب ما يمكن إلى الحرية المطلقة. إن العبث يربطنا بشروطه، ونحن نحمي أنفسنا من إغراء التعامل مع مصادر المعنى أو القيم باعتبارها مجرد مصادر مطلقة. إننا نجد أنفسنا في عالم لم نخلقه، وخاضع لظروف لم نخترها، وعرضة للإصابة والخسارة والموت. ومع ذلك فإننا نعرف أنفسنا أيضًا باعتبارنا قادرين على

---

(1) Pope John Paul: The notion of Absurdity and meaning of life in Albert Camus Existentialism, p. 537.

(2) Thomas Nagel: The Absurd, The Journal of Philosophy, Vol. 68, American Philosophical Association, 2012, pp. 716-718.

خلق الجمال، وتطوير علاقات عميقة ومحبة، وإيجاد الطبيعة التي يكمن فهمها والرائعة، ورؤية إمكانية وجود أكثر اكتمالاً خارج حدود الزمن والظروف[١].

إن العالم يصبح ملكنا بالكامل إذا ما تجاهلنا فكرة وجود كائن أعظم يحدد الخطأ أو الصواب، وأن هناك حياة بعد الموت. هنا يتفق فكر كلٍ من كامي وسيوران في أن العالم والحياة عبث، ومواجهة العالم أشبه بالنضال ضده. وبعد أن عبر كامي عن مساعي الإنسان العقيمة في عالمٍ خالٍ من الله والمعنى، بلا حقيقة أو قيمة أبدية، يصبح التمسك بالعبث في معناه: قبول كل الصعوبات التي يفرضها العالم مع هذه التناقضات. إن مجرد الحضور في العالم هو مجرد تذكير لنا بأننا نعيش في عالم لا يمكن تفسيره[٢].

بمجرد أن نعترف بصحة منظور عالم بدون قيم، فلا رجوع إلى الوراء. لا يمكننا ببساطة أن ننسى أو نتجاهل هذا المنظور. العبث هو ظل. وحتى إذا اخترنا أن نعيشه كما لو كانت الحياة ذات معنى، كما لو كان هناك ..، فإن العبث سوف يظل في الجزء الخلفي من عقولنا كشك مزعج ربما لا معنى له. ولابد أن نيأس من إعادة بناء السطح الهادئ المألوف الذي من شأنه أن يمنحنا راحة القلب. إن العبث يعتمد على الإنسان بقدر اعتماده على العالم. وهو في الوقت الحالي ما يربط بينهما. ومن هنا تبرز تفاهة الوجود، وهي ليست الكون أو الإنسان، إن مفهوم التفاهة، وربما أحيانًا مفهوم السخف، بوصفه ما لا يمكن فهمه يتجلى في غاية الإنسان التي هي الموت. ذلك أن الإنسان في كل عصر كان يطارده احتمال

(1) Pope John Paul: The notion of Absurdity and meaning of life in Albert Camus Existentialism, pp. 335, 336.

(2) Pope John Paul: The notion of Absurdity and meaning of life in Albert Camus Existentialism, p. 535.

مرعب للانقراض التام، لأنه يعيش في حضور دائم لحتمية الموت. إن حياة الإنسان في حركة نحو الموت[١].

لا نستطيع أن نعيش حياة بشرية بدون طاقة وانتباه، ولابد من اتخاذ خيارات تظهر أننا نأخذ بعض الأمور على محمل الجد أكثر من غيرها. ومع ذلك، لدينا دائمًا وجهة نظر فياضة خارج الشكل الخاص لحياتنا، والتي تبدو الجدية خلالها مجانية. تصطدم وجهتا النظر هاتان في داخلنا، وهذا ما يجعل الحياة عبثية. إنها عبثية لأننا نتجاهل الشكوك التي نعلم أنها لا يمكن تسويتها، ونستمر في العيش بجدية غير منقوصة تقريبًا على الرغم منها. إن العبث ينشأ لأن ما نأخذه على محمل الجد هو شيء صغير وغير مهم وفردي[٢].

يؤكد كامي في أسطورة سيزيف أن العبث ينشأ لأن العالم يفشل في تلبية مطالبنا بالمعنى. وهذا يوحي بأن العالم قد يلبي هذه المطالب إذا كان مختلفًا. ولكننا نستطيع الآن أن نقول إن الأمر ليس كذلك. إن عبثية موقفنا لا تنبع من تصادم بين توقعاتنا والعالم، بل من تصادم داخل أنفسنا. كما أن الشك ينضم إلى القدرة على تجاوز تلك القيود في الفكر، وبالتالي نراها قيودًا، ولا مفر منها. إننا نلوح بقبضتنا في وجه العالم الذي لا يستمع إلى توسلاتنا أو هذا لن يجعل حياتنا خالية من العبث، ولكنه سيضفي عليها قدرًا من النبل[٣].

خلاصة القول إن كتابات سيوران تكشف بؤس العالم وعبثيته، وعدم قدرة الإنسان المعاصر على فهم هذا العبث. وهو ما أدى بسيوران إلى دعوة الإنسان العالم إلى التعامل مع تحولات حالته النفسية بتحولات وعيه بالزمن وذلك من خلال القبض على الأبدية في لحظة الديمومة. ولذلك فإن كتاب سيوران "على مرتفعات

---

(1) Ibid, pp. 534, 535.

(2)Thomas Nagel: The Absurd, pp. 219, 720.

(3)Ibid, pp. 721, 722.

اليأس" لا يمكن تصنيفه، فلاهو بالفلسفي، ولا هو بالمقالات في التحليل النفسي، هو كتابة إبداعية خارج التصنيف شأنه شأن "هكذا تكلم زادشت" لنيتشه[١].

إن نظرية العبث وثيقة الصلة بنظريات العدمية والوجودية. فأصل العبث كان في صراع الإنسان غير القادر على تبرير وجوده بمصطلحات إنسانية، وهو يرى أن الواقع ككل يفرض مشكلته الخاصة على الإنسان، الذي لا تستطيع عقلانية أن تتجنب البحث والتأمل والنضال والنظر النقدي إلى الحياة بشكل عام. كما يشير العبث إلى الافتقار إلى الروابط التي تربط الأشياء معًا أو غيابها، كما هي الحالة عندما تتفكك الأشياء. كما يشير إلى الافتقار للانسجام بين شيئين أو أكثر. مثل الرجل الفاضل واتهامه بالطمع، فذلك غير معقول ومتناقض. هكذا يكون العبث، لأن كلا القطبين ليست لديهما رابط مشترك يربطهما معًا[٢].

ب- جدل الأمل واليأس:

أن نكون أو لا نكون؟ ليست تلك هي المشكلة. لا هذا ولا ذاك. فما الأمل سوى الشكل العادي للهذيان. والأكثر من ذلك ليست السعادة في الرغبة بل في انتفائها، فلا تغمرنا إلا في حالة غيابها الكلي. فالسعيد من فقد كل أمل، فالأمل عذاب لا يُطاق، واليأس نعيم عظيم. فماذا باستطاعتي أن أعرف؟ ماذا ينبغي عليَّ أن أفعل؟ ما عساني أن آمل؟ "لا شيء لا شيء". لا حل إلا الموت، لكن حتى الموت، لا يمثل حلاً في نظر سيوران! فهل طعم العدم بعد الموت هو نفسه قبل الولادة؟ تذهب تأملات وأفكار سيوران إذن كلها نحو تمجيد حكمة واحدة، هي محاولة العيش بدون أدنى هدف[٣].

---

[١] إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، ص ٨.

[2] Pope John Paul: The notion of Absurdity and meaning of life in Albert Camus Existentialism, pp. 530, 531.

[٣] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ص ٣٥، ٣٦.

فعندما نفقه ألا شيء على الإطلاق يستدعي الاهتمام، نصل إلى مرفأ النجاة، ولكننا نصبح أشقياء إلى الأبد. إنها حكمة الهلاك والعدم. وعلى الرغم من وده وصداقته لمبادئ البوذية الكبرى، والتي نجدها متناثرة في معظم كتبه وعلى وجه الخصوص في كتابه "الخالق السيئ" إلا أنه لا يدعى أنه كان في يوم من الأيام بوذيًا مؤمنًا. بل إنه يعبر عن نفسه: أنا بوذي فيما يخص استنطاق الألم، الشيخوخة والموت فقط، ولكن حينما يقول بوذا: "والآن اقتلوا الرغبات وانتصروا على الذات وأهوائها! لا أستطيع". فلماذا هذا العجز إذن؟ يجيب سيوران، ويشرح لنا: لأن كل ما كتبته يدور في العمق حول شخصي، حول أناي. وهذا يتناقض تمامًا مع روح البوذية. زد على ذلك أنه من العبث واللاجدوى البحث عن النجاة[١].

إن الأمل تكذيب للمستقبل. فحين نفقد كل دافع، تسود الدنيا في أعيننا، وتصبح السوداوية الحافز الأخير. نصير عاجزين عن الاستغناء عنها فنتبعها في العرس كما في الجنازة. ويبلغ خوفنا من أن نحرم منها حد أن تصبح عبارة "امنحونا خبزنا اليومي من الكآبة" النغمة التي تصاحب كل انتظاراتنا و توسلاتنا[٢].

إن كتاب سيوران "على ذرى اليأس" أو "على مرتفعات اليأس"، يدل عنوانه على عدم القدرة على مواصلة العيش، الشعور بالنهاية، مهزلة ويأس، استشعار الجنون، كآبة ووجد، رؤيا، احتكار الألم، السخرية والسخرية المضادة ... إلخ. ويعد كتاب "اعترافات ولعنات" نواة كتبه الأخرى .. القلق والكآبة، الشعور بالعدم، مديح الصمت[٣]. أليس من عدم اللياقة أن نعرض أسرارنا على الملأ، أن نقول ذاتنا بذاتها، أن نحكي وأن نحكينا، في حين أن أكمل لحظات حياتنا هي تلك التي

---

[١] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ص ٣٦، ٣٧.

[٢] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ١٠٩.

[٣] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ٩.

عرفناها خلال الصمت؟ [١]. وصولاً إلى عاداته الشخصية التي لازمته: النزهات الليلية، الأرق، الكسل، حب الموسيقى، هاجس الانتحار، والمنفى الميتافيزيقي:أي أن يكون الوجود بالنسبة إلينا منفى، والعدم وطنًا[٢].

إن كتاب "اعترافات ولعنات" منبثق من عنف داخلي: لو لم أكتبه لا نتحرت، هكذا يقول سيوران. كما أنه غنائية وشكوى من الوجود. مديح النار، الشباب، إحالات إلى الطاقة الحيوية عند نيتشه. استسلام المتصوف ينبجس من الخواء وليس من النار الباطنية. ويؤاخذ سيوران الحكيم لأنه يتجاهل "مأساوية الهوى". فما من فكر خلاق حقًا يتخلى عن ذاتيته. ومن هنا تتضح معالم صفة "المفكر العضوي" الذي تنتسب فسيولوجية فكره إلى الدم واللحم، فهو المفكر الذي يحول حالاته إلى معرفة، ويستخلص نظرياته من لحمه ودمه، من تجربة الذاتية: في مواجهة الإنسان المجرد الذي يفكر من أجل التفكير (ويهتم بالفلسفة المجردة فقط)، ينهض الإنسان العضوي، المفكر الذي يحدد فقدان توازن حيوي يقع فيما وراء العلم والفن. وقد كان سيوران دائمًا ما يعبر في شذراته: أحب الأفكار التي تحافظ على نكهة الدم واللحم[٣].

إن سيوران يعتبر الحياة مرضًا، والمرض يقظة تُكسب الإنسان زيادة في الكينونة، أو بالأحرى (اللاكينونة) حيث العبث والحياة بلا هدف ولا معنى. ومن أجل كسب الحرية ينبغي التمرن على أن تكون لا شيئًا، وهو الطريق الوحيد لبلوغ براءة ثانية[٤]. يقول سيوران: أشعر أنني حر، ولكنني أعرف أنني لست كذلك[٥].

---

[١] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ٩٥.

[٢] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ٩.

[٣] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ٩.

[٤] المصدر نفسه، ص ٧.

[٥] حميد زنار: معنى الغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ٧٢.

ولنتساءل: هل يقف سيوران عند حد العبث واللامعنى، عند حد الكآبة واليأس، أم أن هناك حلاً يجعله يتحمل عبء الحياة رغم ثقلها، ورغم أنها لا تحتمل؟ هنا نجد سيوران يجد في الشعر والموسيقى والفن ملاذًا آمنًا ذا مذاق خاص يخفف من وطأة الحياة، وبما أن الشعر والموسيقى لغة خاصة تبعد عن المنطق والقياس وتبعد عن النسق الفلسفي والمذهبية الفلسفية، فهو بالتالي يرفض الفلسفة من ناحية، ويلجأ للموسيقى والشعر من ناحية أخرى. وفيما يلي من صفحات نجد رفض سيوران للفلسفة النسقية من ناحية، ويرغب في الموسيقى والشعر وينادي بهما من ناحية ثانية.

ج- وداعًا للفلسفة:

يرى سيوران أن الحياة تدفع إلى الموت، ولكن الموت بهذه الطريقة هو استسلام أسهل من أن يقبل به من كان مثل سيوران. لذلك فهو يكتب كي يموت على طريقته هو، عابثًا بالفلسفة النسقية خصوصًا، ساخرًا من الفكر الصارم. آخذًا من الشعر والموسيقى جوهرهما المشترك: الومضة والإشراق. وكأنه يعلن أن من كان شظية مثله لا يمكن أن يكتب إلا بالشذرات، والشظايا في كل اتجاه، وخاصة في اتجاه السقوط، وهو اتجاه الكينونة الوحيد منذ البداية[١].

يعتقد سيوران أن التعامل بنفس الطريقة مع الشاعر أو المفكر خطأ في الذوق. فثمة مجالات ينبغي على الفلاسفة ألا يقتربوا منها. إن تقطيع أوصال قصيدة على غرار تفكيك نسق فلسفي جنحة، بل تدنيس[٢]. إن الفلسفة النسقية تعتمد على العقل، والعقل هو المستفيد من هزائم الجسم (الجسد)، يثرى على

[١] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ٦.

[٢] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ٦.

حسابه، يسلبه، يهلل لمآسيه، يعيش على اللصوصية. الحضارة مدينة بنجاحها لقاطع طريق، كما يعبر سيوران[١].

ها هو الابن الضال، المناهض للفلسفة الجامعية يعطينا حكمه النهائي في الوجود الإنساني الذي لا يعدو أن يكون سوى ترقيع لما لا يمكن ترقيعه أبدًا. إن الثقب أكبر من أن يُرقع. فسيوران يعود إلى نقطة الصفر، بعدما اختبر عجز الفلسفة وعدم جدواها في عقد مصالحة بينه وبين الوجود. عاد إلى التساؤل عن جدوى حضور بني آدم وحواء على الأرض، وعلى الخصوص التساؤل عن معنى وجوده هو بالذات: "وعيت من زمان أن مكاني ليس هنا، وأنه ليس بإمكاني أن أتلاءم أبدًا مع دنيا الأرض". لقد وجد سيوران أن أخطر ما يهدد الفلسفة الجامعية، هو تمزقها وغرقها في طوفان المصطلحات التقنية، وهو ما يزيد في بعدها عن حقيقة الأشياء[٢].

أعرض سيوران عن الفلسفة لحظة استحال عليه أن يعثر لدى الفلاسفة على أي ضعف بشري أو نبرة حزن حقيقية بالمقارنة مع الموسيقى والتصوف والشعر، ومن هنا يكون النشاط الفلسفي شحيحًا بلا عمق. فضلاً عن أن الفلسفة كقلق لا شخصي تلجأ إلى أفكار مصابة بفقر الدم، لا يلوذ بها إلا المتهربون من الحيوية المفرطة التي تفسد الحياة. فالفلاسفة قد عرفوا نهايات سعيدة: تلك أقوى حجة ضد الفلسفة. وإذا كان نيتشه قد جُن، فذلك لأنه كفَّر عن شطحاته لا عن استدلالاته[٣].

ليس في وسعنا إذن أن نتلافى الكينونة عن طريق الشروح بل لا يسعنا إلا أن نكابدها، أن نحبها أو نكرهها، في ذلك التناوب بين الغبطة والرعب الذي يعبر

---

[١] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ٣٤.

[٢] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ص ١٩، ٢٠، ٥٩، ٦٠.

[٣] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ص ٨٠، ٨٤.

عن حقيقة إيقاع الكائن بتقلباته وتنافر نغماته وسوراته اللاذعة والمرحة. فالكون ليس موضوع جدل. الكون موضوع تعبير، والفلسفة لا تعبر عنه. حيث لا تبدأ المسائل الحقيقية إلا بعد أن نكون قد جبنا الفلسفة أو استنفدناها. ومن ثم فهي ليست مصدر أي نجدة. ولذا فالأنساق الفلسفية الكبرى ليست في نهاية المطاف سوى لغو لامع. لذا فإن أي مزيد من المنطق ستكون عاقبته وخيمة على الكينونة، جهد في اتجاه ما لا معنى له. فما إن تمنح الحياة هدفًا مضبوطًا حتى تفقد كل جاذبية. افتقار غايات الحياة إلى الدقة يجعلها أرفع منزلة من الموت. ذرة واحدة من الدقة تنحط بها إلى سوقية القبور. لأن من شأن أي معرفة إيجابية بمعنى الحياة أن تخلي الأرض من سكانها في يوم واحد، كما يرى سيوران[١].

إننا في بداية الشباب نحاول ممارسة الفلسفة لا بحثًا عن رؤية، بل بحثًا عن محفز. نجد في مطاردة الأفكار ونحدس بالهذيان الذي أنتجها. نحلم بمحاكاتها والإفراط فيه. فالمراهقة يطيب لها اللعب بالذرى. ولكن كان لابد من المرور من هنا، كان لابد من المرور بالعربدة الفلسفية، بعبادة الحيوية[٢].

خلاصة القول يعلن سيوران منذ البداية انتماءه إلى الصف المتمرد ضد النسق في الفلسفة، ثم يعلن لاحقًا احتقاره للفلسفة والفلاسفة عمومًا، حتى أنه لن يُنهي أطروحة دكتوراه حول برجسون مفضلاً التجوال بين الحانات أو بين مدن أوروبا على متن دراجته الهوائية التي كان يعتبرها أهم مكسب له في حياته. فهو عكس المتمردين من نوعه مثل نيتشه الذي فضل العيش بعيدًا عن الآخرين، بل كان سيوران في صميم الضجيج اليومي، ذلك أنه يرى أن العزلة الحقيقية وسط الجموع، وذلك أهم اختبار لها، هذا هو ما عبر عنه سيوران في كتابه الأول "على ذرى اليأس" أو "على مرتفعات اليأس" الذي يقول عنه سيوران "هذا كتاب بدون

---

[١] المصدر نفسه، ص ص ٢٢، ٨٤، ٨٥.

[٢] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ٦٠ – ٦٢.

أسلوب، كتاب مجنون، يحتوي أهم أفكاري". في أوج اليأس، وحده الشغب بالعبث يقي من فوضى تشظٍ شيطاني. فكل وجود خال من جنون عظيم يظل منقوص القيمة، كما يقول سيوران[١].

د- الفن .. الموسيقى والشعر:

إن الفن، وخاصة الموسيقى والشعر هو الملاذ الوحيد لسيوران في مقابل عبث الحياة، خاصة وأنه قد رفض الفلسفة بفكرها النسقي الصارم، لأنه يعيش أفكاره بطريقة فسيولوجية متجسدة من لحم ودم، كما سبق القول.

وبشأن الفن يكتب سيوران، الساسة والمصلحون وكل من يتذرع بذريعة جماعية، جميعهم غشاشون. الفنان هو الوحيد المستثنى من الكذب الشامل، لأنه لا يخترع إلا ذاته. فقولنا "نحن" يمثل الملاذ الزائف للكينونة. وحده الشاعر يتحمل مسؤولية "الأنا". وحده يتكلم باسمه ووحده يملك الحق في ذلك[٢]. يقول سيوران: "لو كان عليَّ أن أتخلى عن ولعي بالفنون لما تخصصت في غير العواء"[٣]. ويعترف سيوران: أنا فيلسوف عواء. أفكاري، إذا كانت هناك أفكار، تنبح، إنها لا تفسر شيئًا، بل تنفجر[٤]. ففي كتاباته يغدو الانغماس في الذات صرخات مدوية لا مصطلحًا فلسفيًا باردًا. ولذا وصف سيوران نفسه بـ "الفيلسوف العوّاء"، وهذه الأفكار التي تنبح أو تصرخ، يجب أن تحافظ على مذاق اللحم والدم[٥].

عاش سيوران مرحلة تتحدث عن الحداثة Modernism وما بعد الحداثة Postmodernism، لكنه اختار الابتعاد عن زمانه، سعى سيوران إلى تحطيم المعنى

---

[١] إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، ص ص ١٩،١٨،٦.

[٢] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ص ٢، ٣.

[٣] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ١٠٠.

[٤] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ٤١.

[٥] حميد زنار: المعنى والغضب، ص ص ١٢، ١٣.

من أجل خوض تجربة اللامعنى. أعلن أنه ضد الفلاسفة، وضد المنظومات الفلسفية والمقولات والأنساق. كما أنه ضد المفكرين الذين ينطلقون من الاقتباس والاستشهاد. فكان يردد: أن كل تعليق على كتاب هو شيء غير مجدٍ، فكل ما لا يأتي مباشرة من الكاتب لا قيمة له. وقد فضل سيوران شكل الكتابة المقطعية، والاعتراف، والحكمة المختزلة، على الخطاب المتماسك. فلا معرفة لديه إلا عبر الحواس، وكل تجربة عميقة تصاغ بعبارات فسيولوجية. وأمام الفلسفة والفكر، يختار سيوران الشعر والموسيقى. ويحول اللاواقع إلى واقع صيغي. فالشاعر هو هذا الوحش الذي يراود خلاصه عبر الكلمة، والذي يملأ خواء الكون برمز الخواء، أي الكلمة. والموسيقى ليست من جوهر إنساني لأنها لا تبعث أبدًا على تصور الجحيم[١]. فهل كنا نتحمل وطأة الأعمال والروائع الفنية وعمقها الفظ، لولا أن عقولاً وقحة ظريفة أضافت إلى نسيجها خصلات من الازدراء المرهف والسخرية العفوية[٢]. هكذا يعبر سيوران عن نفسه. إنه ذلك الفيلسوف الساخر، فيلسوف العبث.

يتحدث سيوران عن عشقه للموسيقى فيعبر: لما كنت قد ولدت بروح عادية، فقد طلبت روحًا أخرى من الموسيقى. لقد توجب عليَّ أن أستسلم إلى استبدادها. فقد مرت بي لحظات، كنت خلالها أستبعد وجود أبدية في وسعها أن تفصل بيني وبين موتزارت Mozart (١٧٥٦ – ١٧٩١) ومن ثم، كنت أفقد كل خوف من الموت. فالموسيقى هي العالم المسموع، والمحاكاة الصوتية لما لا يوصف. الموسيقى هي ملجأ الأرواح التي جرحتها السعادة. حيث تبعث من بعض "متباطئات" موتزارت موجات يأس شفافة، كأنها حلم بجنازة في حياة أخرى. وكلما عجزت الموسيقى نفسها عن إنقاذنا، التمع في أعيننا بريق ضجر. لم يبق شيء

[١] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ص ٢، ٣.

[٢] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١٧.

يسندنا. ولو أنني استسلمت إلى إغواءات الموسيقى ومدائحها لي، وإلى كل العوالم التي بعثتها ودمرتها في داخلي، لكنت منذ زمن بعيد قد فقدت عقلي من الزهو. فالموسيقى الألمانية هي هندسة فصول خريف متعاقبة، كحول مفاهيم، سُكر ميتافيزيقي. كما أن الموسيقى منظومة وداع، توحي بفيزياء ليست نقطة انطلاقها من الذرات، بل من الدموع[١].

بالنسبة إلى البعض، أو ربما إلى الأغلب في الواقع، الموسيقى منشطة ومؤاسية. بالنسبة إلى آخرين، هي مخدر مرغوب فيه، وسيلة غير متوقعة للضياع، للغرق مع أفضل ما فينا. فنحن نكف عن الرغبة في أي عمل فنلوذ بالموسيقى، تلك العناية الإلهية بفاقدي الإرادة[٢]. فالموسيقى هي زمن صوتي[٣]. بعيدًا عن الموسيقى كل شيء كذب، حتى العزلة، حتى النشوة. إنها في الحقيقة هذه وتلك بهيكل أفضل. ما إن تصمت الموسيقى حين يبدو كل شيء مترديًا عديم الجدوى[٤].

لا يحب الموسيقى سوى الذين يتعذبون في الحياة. فعن طريق الموسيقى نشعر فعلاً أننا نمتلك روحًا. فقد أدرت ظهري للفلسفة حينما اكتشفت أنه من المستحيل العثور لدى كانط Immanuel Kant (١٧٢٤ – ١٨٠٤) والفلاسفة أجمعين على أدنى ضعف إنساني ولا أدنى علاقة حزن حقيقي. ومن ثم فالموسيقى وهم يكفر عن كل الأوهام الأخرى[٥].

---

[١] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ١٤٩ – ١٥٢.

[٢] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ص ٧٥، ١٣٧.

[٣] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ٤٩.

[٤] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ص ٣٧، ٤٥.

[٥] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ص ٧٥، ٧٦.

عند سيوران، تمثل الغنائية وثبة بعثرة الذاتية، فهي تشير إلى أن في داخل المرء غليانًا غير قابل للانحباس يحتاج إلى التعبير عنه دون توقف. فالحاجة إلى التعبير عن هذه الدواخل أشد أهمية من الغنائية بما هي داخلية عميقة ومركزة: لماذا يصبح الإنسان غنائيًا خلال التألم وأثناء الحب؟ لأن هاتين الحالتين، رغم اختلافهما في الطبيعة والتوجه، تنبثقان بشكل ما من أعماق الكائن، من المركز الجوي للذاتية. نحن غنائيون منذ اللحظة التي تصبح فيها الحياة بداخل الذات تخفق وفق إيقاع جوهري. ومن ثم فالتجارب الذاتية هي الأبعد كونيًا، بما أنها تدرك العمق الأصيل للحياة، حيث تكشف المنابع الذاتية للغنائية عن نضارة وعمق داخليين أشد لفتًا للانتباه. بعضهم لا يكون غنائيًا إلا في لحظات مصيرية من حياته من البعض الآخر، إلا في لحظات الاحتضار، حين يرمز كل الماضي ويتدفق كالفيضان. لكن في أغلب الحالات، ينبثق الانفجار الغنائي إثر التجارب الأساسية، حين يبلغ اهتياج العمق الحميمي للفرد ذروته[١].

ها نحن مأخوذون بغتة بتجربة الألم ومحمولون إلى جهة معقدة جدًا بشخصنة مدوخة. تحقق غنائية الألم تطهيرًا داخليًا حيث الندبات ليست مجرد مظاهر خارجية تخلو من تضمينات عميقة، غير أنها تساهم في ماهية الكائن. إنها نشيد الدم، نشيد اللحم والأعصاب. وبهذا الشكل، أليست كل الأراضي لديها تقريبًا فضائل غنائية. أما الذين يظلون موضوعيين في مواجهة المرض، فإنما هم الذين لبثوا في جمودهم العاطفي الفضائحي[٢].

لن يصبح المرء غنائيًا فعلاً إلا إثر اضطراب عضوي عميق. الغنائية الطارئة هي نتاج عوامل خارجية تختفي باختفائها، لا وجود لغنائية في غياب بذرة الجنون الداخلي. ومن العلامات الدالة على ذلك، ما يتميز به المصابون بالذهان،

---

[١] إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، ص ص ١٠، ١١.

[٢] إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، ص ص ١١، ١٢.

في البداية من مرحلة غنائية حيث تنهار الحواجز والعوائق تاركة مكانها لسكر داخلي هو من أفضل الخصوبات[١].

هكذا يمكن تفسير الإنتاجية الشعرية للذهان في طور الظهور، الجنون، ذروة الغنائية. لنقتصر إذن على كتابة مديحه كي نتجنب إعادة كتابة مديح الجنون. فالحالة الغنائية أبعد من الأشكال والأنظمة: هي سلاسة، تدفق داخلي، مزيج في الوقت نفسه، كما لو أنه تماثل مثالي بين كل عناصر الحياة والروح من أجل ابتكار إيقاع مكثف وحيد. مقارنة بتلطف ثقافة مجمدة، سجينة الأطر والأشكال، مقنعة لكل شيء، فالغنائية تعبير بربري: تكمن قيمتها الحقيقية تحديدًا، في كونها ليست سوى دم، جدية، ولهب[٢].

قد تغوص بنا الموسيقى في "أغوار" الكائن، لكنها سرعان ما تطفو بنا من جديد على السطح: تبدد آثار الوهم ويتضح بطلان المعرفة[٣]. وهنا يقصد سيوران الفلسفة النسقية والفكر الصارم ورفضه لهما. ويرى سيوران أن تطبيق المعاملة ذاتها على الشاعر وعلى المفكر تبدو لي خطأ في الذوق. ثمة مجالات لا ينبغي أن يقترب منها الفلاسفة. تفكيك القصيدة كما تفكك منظومة فلسفية جوهرية، بل عمل تدنيسي وانتهاك حرمات، كما أن الموسيقى ذات جوهر أسمى من الحياة، وبالتالي أسمى من الموت[٤].

وعن الموسيقى يتحدث سيوران في شذراته: أفضل دليل على أن الموسيقى ليست من جوهر إنساني، بأي شكل من الأشكال، هو أنها لا تبعث على تصور الجحيم. إنها الفن الوحيد الذي يضفي معنى على كلمة المطلق. إنها المطلق

---

[١] المصدر نفسه، ص ١٢.

[٢] المصدر نفسه، ص ١٢.

[٣] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ٨٦.

[٤] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ص ٣١، ٣٢.

معيشًا، لكن عبر وهم كبير لأنه يتلاشى مع عودة الصمت. أما الشعر، فبقدر ما تطول علاقتنا به نتمكن من مغالبة الخواء الداخلي. وبالشعر، كما بالموسيقى، نلامس شيئًا ما، جوهريًا. وفي الشعر يستبعد الزمن، فإذا أنت خارج الصيرورة ... الموسيقى والشعر غيبوبتان متساميتان. وما يجعلني أعترف بأن الشاعر حقيقي، يكمن فيما يلي: عند قراءته، ومعايشته كتاباته مطولاً، يتغير شيء ما في داخلي. ولولا هيمنة المفهوم لحلت الموسيقى محل الفلسفة، ولكان في ذلك فردوس الوضوح، وباء من النشوة المتنقلة[١].

قبالة البحر فقط يمكننا أن نفهم حاجتنا للشعر التي تختفي تحت مقاومتنا أمام أمواج الموت. فالشعر يعني غيبوبة، تخل، عدم مقاومة لسحر الجمال، وبما أن كل جمال هو ضياع، من يمكنه أن يجد شعرًا واحدًا متحمسًا؟ فلا الخمر ولا الموسيقى، ولا العناقات تعرف كيفية الاقتراب من التمزق مثلما تفعل الأمواج التي تتصاعد في فراغنا ولا معنانا، وتواسينا بوعود الضياع! وتُعلى نوستالجيا الموت الكون كله إلى مرتبة الموسيقى. كما أن البحر باعتباره موسوعة شاسعة للتلاشي أكثر امتدادًا من السماء. وعلى ضفاف البحر يلخص الجفاف الداخلي للأيام المقفرة الرغبة في السعادة والألم ودائمًا على نفس هذه الضفاف، نعفي أنفسنا دينيًا من الله. فالله، عند سيوران، في حد ذاته ليس سوى غياب للدين. بينما الروح هي الموسيقى، ولو لم تكن لدينا روح لخلقتها الموسيقى[٢].

يرى سيوران أن شوبنهاور Arthur Schopenhauer (١٧٨٨ – ١٨٦٠) ونيتشه هما أفضل من تحدث عن الحب والموسيقى في القرن الماضي[٣]. يعبر سيوران في "دموع وقديسون" أنه كلما قرأ المتشائمين أحب الحياة أكثر. لقد كان سيوران في وقت كتابته لهذا الكتاب، لم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من عمره،

---

[١] المصدر نفسه، ص ص ١٠ – ١٤.

[٢] إميل سيوران: غسق الأفكار، ص ص ١٠٩، ١١٠، ١٦٤، ١٦٧، ١٩٦، ١٩٧، ٢٣٤.

[٣] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ١٠٣.

ولكنه كان سعيدًا بقراءة شوبنهاور: أتصرف وأستجيب كعاشق سعيد بعد كل قراءة لشوبنهاور، لكن إذا كان شوبنهاور محقًا في اعتبار الحياة مجرد حلم، فإنه يرتكب كبرى الكبائر في نظره عندما يعري الأوهام بدل تشجيعها، موحيًا بوجود شيء آخر غيره. فلم يشفِ غليل سيوران حتى جهابذة التشاؤم أنفسهم، فاعتبرهم سذجًا، وراح يسقطهم الواحد تلو الآخر. ولكن ليس من السهل أن نرى سيوران يحذو حذو شوبنهاور الذي كان يرى في وجودنا "صراعًا مع الحياة"، مع يقيننا التام بأننا نمنى بالهزيمة النكراء في نهاية المطاف(١).

وردًا على سؤال طرحه على سيوران طالب حول علاقته بنيتشه، أجاب سيوران: بأني تخليت عنه من زمان. فقد هدم الأوثان ليعوضها بأوثان أخرى. ها هو هادم مزيف. لقد راقب البشر من بعيد، لو اقترب منهم لما جاء بفكرة السوبرمان Superman على الإطلاق(٢).

اتفق سيوران مع كل من شوبنهاور ونيتشه في أن الشعر والموسيقى قادرين على شحن الروح بطاقات إيجابية من شأنها أن تحرر الكائن من سلبية النسقية الصارمة للفلسفة.

وكما يرى نيتشه أننا لا نستطيع أن نفرق بين الدموع والموسيقى، وكذلك يؤكد سيوران أن من لا يستطيع أن يدرك هذا على الفور، فهو لم يتمكن من العيش في حميمية الموسيقى. فكل موسيقى حقيقية نابعة من البكاءات، فهي وليدة الندم على ضياع الفردوس(٣).

يرى نيتشه أن الفنان أصح من كل الفلاسفة، فالفن هو الحافز الأكبر للحياة، ولذا فهو يحبذ الفن ولا شيء غير الفن، الفن هو الأرقى، ولذا يفسر نيتشه العالم على أنه عملية جمالية، وأن أعلى تعبير عن الحياة هو ميلاد المأساة، والذي يسمى بالتصور الكوني أو الشعري الميتافيزيقي. فالحياة معاناة لا تطاق، وهي في

(١) حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ص ١٠، ٣٤، ٣٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٤.

(٣) إميل سيوران: دموع وقديسون، ص ص ١٢، ١٣.

حاجة إلى الفن لجعلها ممكنة ومحتملة. فالفن وحده لديه القدرة على التغلب على الرعب وأهوال الوجود وعبث الحياة. ومن هذه الرؤية المأساوية للعالم يمكن أن نفهم العلاقة الوطيدة بين الفن والحياة، ولذا لن نستطيع دمج مبادئ الفن والفلسفة، لأن الفن أرقى من الفلسفة[١]. هذا ما يتفق فيه سيوران مع نيتشه.

أما رفض سيوران لفكرة العود الأبدي والسوبرمان فذلك لأن نيتشه يرى أنه يجب على المرء أن يكون المرء دائم الإرادة لعقيدة العود الأبدي، والتي يسعى نيتشه من خلالها لقول نعم للحياة، ولإله الحياة ديونيسيوس، والتي يمكن من خلالها الوصول للسوبرمان والذي من صفاته أنه: الرجل العبقري، الأكثر عمقًا، والأكثر قوة، والأكثر جمالاً، الإيجابي الخلاق، وهو أيضًا فنان[٢].

خلاصة القول: إن "جدب الوعي الذي يشتكي منه القديسون هو المعادل النفسي لصحراء الخارج. كل شيء هو لاشيء. ذلك هو التجلي الأساسي للأديرة. ومن هنا يبدأ التصوف، وأي شيء أكثر طبيعية عند هذا الشعب من حضور التصوف الذي ألغى المسافة بين السماء والأرض؟ كما أن الموسيقى هي الانبثاق النهائي للكون، كما هو الشأن بالنسبة إلى الله الذي هو الانبثاق النهائي للموسيقى. يقول سيوران: "أنا مثل بحر يسحب مياهه ليترك المكان لله. تفترض الإمبريالية الإلهية انحسار الإنسان". فذلك الذي إحساسه على حواف السماء والبحار لم يرعَ

(1) Vanessa Lemm: Nietzsche and Becoming life, John D. Caputo, series editor, perspectivness in continental philosophy, Fordam University Press, New York, 2015, p. 2.

(2) Michael Allen Gillespie: Toward a new Aristocracy: Nietzsche Contra Plato on the Role of Warrior Elite, Art in Jeffrey Metzer: Nietzsche, Nihilism and Philosophy on Future, 2009, p. 20.
And: Fredrich Nietzsche: The Dionysian Vision, on the world, Trans by: Iraj, Allen. Introduction by Fredric ulfers, Univocal, Congress, 2013, p. 16.

الدموع، لم يطارد النواحي المضطربة للألوهية، حيث العزلة كما هي تستدعي عزلة أخرى أكثر بكثير[١].

كلما اتخذ سأمنا من العالم شكلاً دينيًا، كان الله البحر الذي نتخلى له عن أنفسنا حتى ننساها. إن الغرق في الهاوية الإلهية ينقذنا من غواية أن نكون كما نحن. فالديانة ابتسامة تحلق عمومًا في سماء اللامعنى، مثل عطر نهائي على إحدى موجات العدم. لذلك ولقلة الحجج ترتد الديانة إلى الدموع. فلم يعد هناك غيرها لتضمن القليل من توازن الكون ووجود الله. حالما تجف الدموع، سوف تختفي الرغبة في الله هي أيضًا. ومن ثم فلا شيء يربط الرباني بالبطولي. فليس لله أي صفة من صفات البطل. الجبن اللاطبيعي للمسيح. ومن هنا يرى سيوران أن الخلود عفن، لا يكل، والله جثة يسترخي فوقها الإنسان. فالمسيحية لم تفعل سوى استثمار خشية لتكسب منها أقصى ما يمكن من الربح من أجل ربانية جعلت من الهلع حليفها[٢].

---

[١] إميل سيوران: دموع وقديسون، ص ص ٣٤ – ٣٦.

[٢] المصدر نفسه، ص ص ٣٨، ٤٣، ٥٠، ٥٤، ٥٩.

رابعاً- الكتابة(*) عند سيوران:

أ- الشذرات .. تحايل على عبث الحياة:

عندما سئل سيوران: لماذا الشذرات: أجاب ربما بسبب الكسل، النزق، القرف، أو لأسباب أخرى(١). ويمكن القول إن كتابة سيوران تمثل، في حد ذاتها، حدثًا فريدًا في النصف الثاني من القرن العشرين(٢). ويعد كتاب "المياه كلها بلون الغرق" أول الكتب الشذرية أو المقطعية، كما يحلو للبعض تلقيبها لسيوران، علاوة على أن كتابة الشذرات هي من أهم خصوصيات أسلوبه وفكره. فهو من بين الكتاب الذين جعلوا من الكتابة القصيرة سلاحًا يواجهون به الانحلال الأخلاقي والثقافي بعصرهم.

ولكن سيوران مختلف عن سابقيه، وهذا الاختلاف بعيد كل البعد عن اهتمامات وهموم سابقيه. فهو لا يبحث عن الإصلاح الأخلاقي أو غيره وفقًا لمرجعية ثقافية ودينية تستمد شرعيتها من مدرسة دينية أو فكرية. بل هو يحاول من خلال شكل أدبي حر أن يقول الشيء ونقيضه، لا تناقضًا مع نفسه، فهذا سوء فهم لكتابة سيوران وفكره، بل تعبيرًا عن كل أبعاد نفسه، متوخيًا في ذلك أسلوبًا ديناميكيًا حيويًا واختيارًا دقيقًا للكلمات(٣).

(*) جاءت الكتابة عند سيوران في صورة شذرات، ولذا فإن أسلوب كتابة هذا البحث مستقاة من تلك الشذرات، فأحيانًا نجد الفكرة ونقيضها في نفس الشذرة، وأحيانًا يكون أسلوب الشذرة غامضًا، لكونه أدبيًا خاصًا بفكر سيوران، وأحيانًا يكون من الصعب أن تكون الشذرة طويلة، ولكنها شذرات قصيرة حاولت أن أوضح من خلالها أفكار سيوران عبر أفكار هذا البحث، ولذا جاءت كل فقرة في البحث محتوية على العديد من الشذرات.

(١) إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ١٧.

(٢) إميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ص ٥.

(٣) إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ٧، ٨.

لسيوران رأي خاص في الكتابة، فهو يفترض ألا نؤلف الكتب إلا لنقول فيها ما لا نجرؤ على البوح به لأحد[١]. كتب سيوران يقول: .... أحب الفكر الذي يحافظ على مذاق من الدم واللحم" ذلك أن الكتابة بالنسبة له هي طريق اللاكتابة. إنه نوع من التحايل على الحياة التي تتظاهر بالمعنى. والحال أن لا معنى لها على الإطلاق. إذن الكتابة تحايل على عبث الحياة[٢].

إن الشذرة هي طريقة كتاب سيوران وفي هذا يقول: "كيف نتابع اليوم فكرة كنا قد اهتممنا بها ليلة أمس؟ بعد أي ليلة كانت، لسنا نفس الشخص، ومن الغش أن نواصل مهزلة الديمومة ... ولذا فالشذرة، جنس مخيب للأمل دون أي شك، لكن وحدها هي الشريفة"[٣]. أما عن طريقة كتابة سيوران "الشذرات" وتفضيله لتلك الكتابة المقطعية فيعبر لنا: الشذرة هي الشكل الوحيد الدائم لمزاجي، مثل كبرياء لحظة محوَّلة، مع كل التناقضات التي تحتويها. كما أن عملاً ذا نفس طويل، وخاضعًا لمتطلبات البناء ومزيفًا بها حسب التتابع، هو عمل من الإفراط في التماسك بحيث لا يمكن أن يكون حقيقيًا[٤]. فما دمنا لا نعرف إلى أن نتجه، فلنتخذ من التفكير المتقطع، باعتباره انعكاسًا لزمن يتطاير شظايا، فلا فائدة من الذهاب إلى عمق أي شيء[٥]. وعلى الرغم من أن آراء سيوران تثير فينا الدهشة، فإنها تفاجئنا وتثرينا.

كان لسيوران عدة كتب، منها "المياه كلها بلون الغرق"، وهو عنوان مقترح للمترجم للالتفاف على جفاف العنوان الأصلي "مقايسات المرارة"، فإن عبارة "تاريخ ويوتوبيا" هي الترجمة الحرفية للعنوان الأصلي للكتاب الصادر بالفرنسية سنة

---

[١] إميل سيوران: مثالب الولادة، ص ٥٣.

[٢] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ٦.

[٣] إميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ص ٨.

[٤] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ١١.

[٥] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ص ١٤١، ١٤٦.

١٩٦٠، وهو الرابع في سجل أعمال سيوران، وذلك بعد صدور "غواية الوجود" سنة ١٩٥٦، "المياه كلها بلون الغرق" سنة ١٩٥٢، و"رسالة في التحلل" سنة ١٩٤٩. ولئن لاحظنا هنا نظامًا نسقيًا في تسلسل تواريخ صدور الكتب الأولى لسيوران، أى بمعدل يتراوح بين ثلاث وأربع سنوات بين الإصدار والآخر، فإن هذا الأمر يستمر إلى آخر حياة الكاتب الإبداعية، وكأنه تعمد أن يعتكف كل مرة طيلة المدة المذكورة للإتيان بعمل جديد(١).

كان سيوران يعتبر نفسه من "الفلاسفة بالصدفة" معلنًا أن الكتب الوحيدة التي تستحق أن تكتب هي تلك التي يؤلفها أصحابها دون أن يفكروا في القراء، ودون أن يفكروا في أي جدوى أو مردود. مضيفًا أن مأساة الكتَّاب بصفة عامة تتمثل في كونهم يملكون جمهورًا ويكتبون لهذا الجمهور، وهذا لا يمكن أن يؤدي إلا إلى عواقب وخيمة(٢).

كاد سيوران أن ينقطع عن الكتابة بعد صدور "غواية الوجود" سنة ١٩٥٦ بسبب أزمة وجودية تتمثل في تساؤله عن مصيره كفرد وككاتب في فرنسا. لكن بفضل مجهودات الكاتب الكبير جون بولان Jean Paulhan الذي كان يدير آنذاك "المجلة الفرنسية الجديدة" لم ينقطع سيوران عن الكتابة وتمكن من مواصلة مسيرته. هذه المسيرة المتقطعة تعكس حياة الكاتب ذاته من حيث الشكل والمضمون الحر. و إذا كان كتاب "تاريخ ويوتوبيا" ينتمي إلى جنس الفكر أو المقالة الفكرية، فإن كتابة سيوران تتجاوز هذه المنظومة –أو كما قلنا– تتحرر منها. فالكتابة هنا كتابة فحسب. كتابة تنسلخ عن الأجناس كي تصير ماهيتها، ماهية ذاتها تحديدًا. أي فعلاً شموليًا، إن نم عن شيء، فهو ينم عن إيمان عميق بعبث كل شيء حتى الكتابة ذاتها(٣).

(١) إميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ص ٧.

(٢) إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ٥، ٦.

(٣) إميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ص ص ١٤، ١٥.

وعلى الرغم من أن سيوران كان من أهم الناطقين بالفرنسية خلال النصف الثاني من القرن العشرين، إلا أن له رأيًا آخر. إذ يعتبر أن لغته هزمته، وهي التي فرضت عليه النمط غير النمطي في الكتابة، أي الجنس المقطعي أو الشذري، حتى وصلت به إلى الصمت، علمًا بأن آخر كتبه "اعترافات ولعنات" صدر ثماني سنوات قبل وفاته، وأنه انقطع تدريجيًا عن الكتابة منذ بداية الثمانينيات. ربما هو "الملل" الذي يسود أي صراع غير متكافئ، فسيوران يعتبر نفسه ضعيفًا أمام عظمة هذه اللغة، فهو وإن نجح في ترويضها لمدة ثلاثة عقود، يقر بفشله في ترويض ذاته من خلالها[١].

هذا الكاتب الزاهد في الجمهور ألف لجمهوره خمسين كتابًا إلى جانب أنه ظل حريصًا على الإقامة في الظل بعيدًا عن الإعلام وأضوائه الكاشفة. ثم حلت سنة ١٩٦٥، وصدر له كتاب "رسالة في التحلل" وأخذت أعماله طريقها إلى الألمانية والإنجليزية. ولكنه حزن حزنًا شديدًا عام ١٩٨٨ حين مُنح جائزة بول موران Paul Morand فاضطر إلى رفضها رفضًا صارمًا. فقد أحس أن هذا التكريس منافٍ للقدر اللائق بكاتب مثله[٢].

تماهى سيوران مع ما يكتبه، تماهي أولئك الذين اعتبرهم يملكون الحقيقة[٣]، كما أنه يعد بصيص نور في العتمة المحيطة بنا، لأنه تمكن من حل هذا النزاع الراسخ أيضًا في هويته الرومانية أي الشرق أوروبية عبر الكلمة والفكر، مغامرًا في لغة ليست لغته الأم (الفرنسية)، تائهًا في مدينة ليست مدينته (باريس)، غارقًا في بحر داكن اللون وهو لا يجيد العوم، بحر المعنى وبالتحديد بحر إضفاء المعنى على الحياة. فسيوران لم ينجح في تغيير ذاته عبر الكتابة، وأن مرضه الكامن في أصوله الجينالوجية، انتصر عليه وطرحه أيضًا. "تغريني في أحيان كثيرة فكرة انتحال سلالة أخرى لي، فكرة استبدال أسلافي وانتقائهم من بين من

---

[١] إميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ص ١٦.

[٢] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ٧، ٨.

[٣] المصدر نفسه، ص ٨.

عرفوا في زمانهم كيف ينشدون الحداد بين الأمم، على النقيض من أسلافي، على النقيض من أسلافنا الباهتين ..." هذا مريب فعلاً، ولكن من قال إن كتابة سيوران وفكره وحياته ليست بالمريبة؟[١].

ب- الحماس الأيديولوجي[*]:

---

[١] إميل وسيوران: تاريخ ويوتوبيا، ص ٦.

[*] في هذا السياق الفكري الخاص بسيوران علينا أن نبدأ بتعريف قياسي إلى حد ما للأيديولوجيا، والتي هي مجموعة من الأفكار التي يصنع بها الرجال ويفسرون ويبررون غايات ووسائل العمل الاجتماعي المنظم، بغض النظر عما إذا كان هذا العمل يهدف إلى الحفاظ على نظام اجتماعي معين أو تعديله أو اقتلاعه أو إعادة بنائه. والأيديولوجيات معقدة، إنها ليست أنظمة فكرية محكمة الغلق. إنها هياكل معيارية، إنها معقدة داخليًا ومختلطة ومتداخلة. كما أن الأيديولوجيات مجموعة من المفاهيم السياسية، بعضها جوهري وبعضها مجاوز، وبعضها هامشي. ولم تظهر الأيديولوجيات إلا عندما تم طرح النظام التقليدي على السؤال في المجرد من خلال التنوير. وفي الملموس من خلال الثورة. ومن ثم فالأيديولوجيا هي وجهة نظر حول ما ينبغي أن نفكر فيه ونقوله ونفعله بشأن السياسة من منظور ما ينبغي أن نتصرف بموجبه ويمكن القول إننا نعيش عصر الأيديولوجيات. وأهم الأيديولوجيات هي الليبرالية والاشتراكية والمحافظة. كما تقوم الأيديولوجيا على المعتقدات السياسية أو الاقتصادية كما عند كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨-١٨٨٣)، وأحيانًا تعني الأيديولوجيا شعورًا زائفًا من الأفكار الزائفة الاقتصادية والاجتماعية. والتي تمثل خداعًا يشارك فيه أعضاء طبقة أو جماعة واحدة بناء على ما لديهم من مصالح مشتركة خاصة بتلك الطبقة أو الجماعة. إن الأيديولوجيا تحتوي على نظرية تفسيرية من نوع شامل إلى حد ما حول الخبرة الإنسانية والعالم الخارجي. كما أن الأنظمة السياسية ترتبط بالقوة والهيمنة وتأسيس الهويات السياسية والقوة في نهاية المطاف هي أساس الحرب، وليس السياسة. وهنا تسود الصراعات. وقد ألهمت الانتصارات شبه الكاملة للفاشية في القرن العشرين الأبحاث حول الطاعة والاستبداد.

- James Alexander: The major ideologies of liberalism, socialism and conservatism. Political Studies Association, Bilkent University, 2014,pp.2-4.
- Bray Brooke, D.,: Ideology, Art in Encyclopedia of Philosophy, Vol. 4, pp. 124-126.
- M. Philip: Ideologies, Meaning, Basic, features, Mahtame Gandi Central, University Bihar, 2023, pp. 6-8.
- Edward G. Carmines and Nicholes J. D. Amico, Political ideologies, India University, 2014, p. 1.
- Charles Blattberg: Political philosophies and political ideologies, Universitê de Montréal, London, Bloomsbury, 6th ed, 2013, p. 1.
- Andrew Vincent, Wiley Blackwell: Modern political ideologies, third edition, 2010, pp. 7-10.

إن هناك جرحًا غائرًا في أعماق سيوران، أثر في حياته وفي كتاباته وفي نظرته للعالم وفي علاقته بالآخرين، وقابله دارسوه ومترجموه بالتكتم والإنكار، ويتمثل هذا الجرح في علاقة سيوران بالمد الأيديولوجي. والحقيقة أن سيوران لم يكن وحده في هذا الحماس للمد الأيديولوجي اليميني المتطرف الذي تفشى في رومانيا فترة ما بين الحربين، واستطاع تجنيد خيرة طليعتها الثقافية: مرسياد إليا وقسطنطين نويكار فضلاً عن سيوران. وقد رأوا في تلك الأطروحات نوعًا من الدفاع عما أسموه بالبربرية الخلاقة على مد أوروبا كلها، لا رومانيا فحسب، بروح جديدة تنقذها من انحطاطها، بواسطة تنظيم الشباب على غرار الشبيبة الهتلرية، وحثهم على التخلص من الأفكار الهدامة البالية التي تدعي أن الإنسان الفرد قيمة في ذاته، وتشجيعهم على منح الدولة الحق في أن تنشر رعبها التوتاليتاري (الشمولي)[*] المخصب، مثل الدرع على جسد البلد، كي تنقذه من الإفلاس[١].

- Teun A. Van Dijk: Ideology, A multi disciplinary approach, SAGE publications, London, Thousand Oaks, New Delhi, 1998,P.vii.
- Felicia Pratto and Fouad Bou Zeineddine: Politics and the psychology of power, multi-level dynamics in the (Im) Balances of Human Needs and survival, 2015, p.243.

[*] الشموليةTotalitarianism: مفهوم يستعمله علماء السياسية لوصف الدولة التي تحاول فرض سلطتها على المجتمع، وتعمل على السيطرة على كافة جوانب الحياة الشخصية والعامة قدر إمكانها، إن الشمولية تسعى للتحكم في كافة أوجه الحياة الاقتصادية والأخلاقية والفنية. تطور المصطلح في عشرينيات القرن العشرين من قبل المحامي الألماني النازي كارل شميت والفاشيست الإيطاليين. استخدم كارل شميت المفهوم في كتابه "مفهوم السياسة" الصادر عام ١٩٢٧، ليقدم أسسًا قانونية للدولة البالغة القوة. أصبح المفهوم رائجًا في الأوساط الغربية المناهضة للشيوعية خلال حقبة الحرب الباردة من باب إظهار التشابه بين ألمانيا النازية ودول فاشية يمينية أخرى وصنفت بأنها شمولية مثل الاتحاد الأسباني لليمين المستقل، الذي ظهر بين ١٩٣٣، ١٩٣٧ في الجمهورية الأسبانية الثانية.

كما يمثل هذا الجرح في علاقة سيوران بالفاشية[*] وبشخصية هتلر تحديدًا. فقبل أن يبلغ سيوران الثلاثين من عمره أحس بعاطفة جياشة تجاه بلده، عاطفة بائسة عدوانية لا أفق لها، عذبته و عاشت معه طيلة سنوات. في تلك الفترة ظهر

انظر: محمد جلوب الفرحان: سيمون فايل: الفيلسوفة الفرنسية الفيمنستية في القرن العشرين، مجلة أوراق فلسفية، مركز دريد الفرحان للأبحاث والدراسات الأكاديمية، العدد ٤٥، مارس، ٢٠١٩، ص ٨.

And: Johanna sells Roney: The spiritual of Labour, Simon Weil's quest for transcendence, institute of christian studies, Toronto, ontaria, Granada, 1983, pp. 36, 47.

(١) إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ١٩.

(*) الفاشيةFascism تيار سياسي وفكري من أقصى اليمين، ظهر في أوروبا في العقد الثاني من القرن العشرين، له نزعة قومية عنصرية تمجد الدولة إلى حد التقديس. ويرفض نموذج الدولة الذي ساد أوروبا منذ أواخر القرن التاسع عشر القائم على الليبرالية التقليدية والديمقراطية البرلمانية التعددية وهو وصف لشكل راديكالي من الهيمنة. تمثلت تاريخيًا في تجارب لحركات سياسية، قومية، أو وطنية، سعت الحركات الفاشية لتوحيد الأمة التي تنتمي لها عبر الدولة الشمولية الروحية للتحرك الجماعي للمجتمع الوطني، وتميزت بالحركات الهادفة إلى إعادة تنظيم المجتمع بحسب مبادئ منسقة مع الأيديولوجيات الفاشية. اشتركت الحركات الفاشية بملامح مشتركة تتضمن تبجيل وهيبة الدولة، حب شديد لقائد قوي، وتشديد على التعصب الوطني والعسكري. وترى الفاشية في العنف السياسي والحرب والسطوة على أمم أخرى طريقًا للوصول للبطش والنهضة الوطنية. ويقر الفاشيون برؤيتهم أن الأمم الأقوى لها الحق في مد نفوذها بإزاحة الأمم الأضعف. كانت إيطاليا أولى البلدان التي تأسس بها نظام فاشي، ويشار إليها كثيرًا لتمثل النموذج الذي يقاس على تجارب لاحقة.

انظر: محمد جلوب الفرحان: سيمون فايل، الفيلسوفة الفرنسية الفيمنستية من القرن العشرين، ص ٨.

And: Peter Salmon: Simon Weil was a saints of the social movement. Jacobin, 2023, p. 1.

And: Sian Miels: Simon Weil, An Anthology. Penguin Classics Books, 2005, p. 8.

في رومانيا شيء يشبه الحركة أو التنظيم بهدف إصلاح كل شيء، حتى الماضي. من هنا ارتاب سيوران في الأمر، إلا أنه رأى فيه الإشارة الوحيدة إلى أن بلاده يمكن أن تتحول إلى شيء آخر غير الوهم[١].

انساق سيوران مع هذه الرؤية وكتب الكثير من المقالات، حاثًا الشباب على أن يتحملوا بشجاعة أقسى العواقب، كي تنتصر اللاعقلانية في السياسة، مقتدين بالمثال الرائع ألمانيا، حتى تنبعث رومانيا مختلفة، فنعيش فعلاً لحظتها التاريخية متخلصة من كل الأفكار المخزية التي من بينها فكرة الحرية للجميع. وكان سيوران في الثانية والعشرين من عمره آنذاك، وقد برر مواقفه تلك، وفي أكثر من مناسبة بعد ذلك، بالطيش وعدم النضج، إلا أن المسألة كانت أعمق بكثير. فقد صرح هو نفسه بأنه قد تتناقض أشياء على الصعيد العقلي، إلا أنها تتناغم على صعيد الواقع بمجرد أن توجد في الحياة، لذلك نستطيع أن نشك في كل شيء، وأن نكون، على الرغم من ذلك مع الديكتاتورية، حسب رأي سيوران، مضيفًا إلى أنه لا يخفى ميله إلى الحالمين، حتى إن كانوا حالمين دمويين،وأنه يعتقد أن القوة المنظمة قادرة على لعب دور حاسم، وأن وجود رومانيا التاريخي لا يمكن أن يظل محكومًا بالرداءة[٢].

ربما انساق سيوران وراء هذه الأفكار بسبب تمرد الشباب في مثل عمره، لكن الأرجح أنه كان يرى نفسه كبيرًا، وأنه كان يبحث لنفسه عن وطن بحجمه، وأنه وجد في النموذج الفاشي أو الهتلري طريقة يتحول بها الضعيف إلى قوي[٣]. حقيقة الأمر تتقدم بعض الأمم حينما تركد أخرى، حيث يسود الأقوى، وهذا الأقوى أكثر تميزًا، وكلما سادت المنافسة، سادت معها الرغبة في السيطرة، وقد سيطر الجزء

---

[١] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ١٧، ١٨.

[٢] إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق، ص ص ١٨، ١٩.

[٣] المصدر نفسه، ص ص ١٩، ٢٠.

الغربي عن العالم، واعتبر مقياس الأمم المتقدمة هو التفوق في فن الحرب والسلاح والقوة العسكرية المتمثلة في النازية[١].

إن النازية إذن هي وليدة الحضارة الغربية، ومع هذا كيف يمكن للإبادة النازية بهذه الكيفية التي أمكن بها لمجتمع غربي يقال إنه "متحضر" مثل المجتمع الألماني مجتمع هيجل Georg Wilhelm Fredrich Hegel (١٧٧٠ – ١٨٣١) وفاجنر Richard Wagner (١٨١٣ – ١٨٨٣) وهايدجر Martin Heidegger (١٨٨٩ – ١٩٧٦) أن يفرز حركة بربرية تمامًا كالحركة النازية، ثم يخضع كل أعضاء المجتمع لها. ويمكن القول إن النازية هي مجرد انحراف لا عن مسار التاريخ الألماني فحسب، وإنما عن مسار التاريخ الغربي ككل[٢].

إن سيوران في كتابه "تاريخ ويوتوبيا"[*] يعتبر الأسلوب مغامرة، يجوب مجال المعرفة بطريقة تبعث الإعجاب في نظر القارئ العارف الشغوف، فهو لا

---

(1) Persons, S.: Social: Social Darwinism, selected essays of William Graham Sumnr, Prentice Hall INC, Englewood Cliffs, N. J., 1963, pp. 86, 93.

[٢] عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ (رؤية حضارية جديدة)، تقديم: محمد حسنين هيكل، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م، ص ٥٨.

[*] إن كتاب "تاريخ ويوتوبيا" هو أكثر كتب سيوران نظامًا ونسقية في بنية الفكر والأسلوب. فهو شأنه شأن "غواية الوجود"، يخضع لشكل نثري ذي حبكة فلسفية واضحة، على الرغم من أن "غواية الوجود" لا يتمحور حول فكرة أو موضوع محددين، فهو بمثابة استكشاف لمتاهات "الوجود" والرغبة الغاوية التي يبعثها في نفوس البشر، غاشيًا بذلك أبصارهم عن إمكانية النجاة بفضل "الفراغ" أو "العدم". إنه كتاب فريد من نوعه، أو حدث داخل الحدث، كيفما حاولت النفاذ إليه. فهو أثر متكامل إن تطرقنا إليه من باب الشكل الإبداعي في الكتابة أو من باب الفكر المحض، علاوة على أنه يطرح القضايا الأساسية التي لم يقدر بعد على حلها لأننا لم ننتبه إليها ولم نخضعها بعد. إنها قضايا علاقتنا مع التاريخ. تاريخنا –في تبلوره وسيره جنبًا إلى جنب مع اليوتوبيا– أي أحلامنا وكوابيسنا معًا –التي ما استطعنا بعد رؤيتها بشيء من التروي والنضج في الفكر والقول والعمل على حد سواء. أليس هذا طريقًا غريبًا حقًا؟ بلى، لكن

يستمد مرجعياته من كتب التاريخ، بل من النصوص المؤسِّسة التي تشهد على معنى التاريخ المشترك للشعوب، لا للشعب فحسب، بل للجنس البشري جميعًا، وللإنسان فردًا[١].

في وسعنا اعتبار كتاب "تاريخ ويوتوبيا" حدثًا داخل الحدث، فهو أثر نحن بأمس الحاجة إليه اليوم وغدًا، لأنه يحمل "فكر ما بعد الوفاة" –أي أنه جاء ليملأ الفراغ الناتج عن موت المؤلف البيولوجي وصمته الإبداعي على حد سواء. مثل هذا الكتاب لا ينفتح بسهولة للقراءة، ولا يتمكن من الاستمتاع به إلا الذين دربوا أنفسهم على ممارسة كتابة وفكر خطيرين بسبب ما ينتج عنهما من الأرق والدوار والغثيان. لكن، وبعد خوض هذه المعركة، يخرج القارئ حيًا، ربما لا رابحًا ولا منهزمًا، بل مفتوح العينين فحسب، وواضح البصيرة، ليقرر بعد ذلك إن كان خاسرًا أو منتصرًا[٢].

من هذا المنطلق يبدو الكاتب الروماني الأصل سيوران مرجعًا أساسيًا لنا في مغامرة البحث عن هويتنا المبعثرة وعن إمكانية تصالحنا مع الحضارة الغربية التي أسقطنا عليها ما زرعته فينا من شعور بالحرمان والإحساس بالنقص خلال الفترة الاستعمارية من جهة، وتبعًا للأحداث التاريخية اللاحقة على ذلك والراسخة فينا، من جهة أخرى[٣].

علينا أخذ هذا الكتاب بكل ما أوتينا من قوة، وقراءته بالطريقة المنهجية التي يستحق، إذ إن أسلوب سيوران ليس أكاديميًا أو جامعيًا. فهو يرفض الخضوع للمصطلحات والأنساق الفلسفية والفكرية والعلمية السائدة. هو أسلوب يكاد يكون شعريًا، وإن اتخذ من النثر متنًا له.

انظر: إميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ص ٩.

[١] المصدر نفسه، ص ٩.

[٢] إميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ص ص ٥، ٦.

[٣] المصدر نفسه، ص ٦.

لا يخضع كتاب "تاريخ ويوتوبيا" لحركة عقلية أو فكرية واضحة المنهج، بل العكس يتبع حركة دائرية مستمرة، وكأن غايته بعث الدوران فينا حتى نبلغ مرحلة الغثيان. وإذا كان سيوران قد استطاع بث نظريته العبثية، في الذي سنجنيه نحن؟ هل سنشفى من داء الأمل، ونرضى لأنفسنا بألم اليقظة أم سنثور ضد كل شيء لنصير أبناء الشيطان "من قال لا في وجه من قالوا نعم"[١].

يرى سيوران أن ليس للتاريخ معنى، فلا يمكن للناس أن يتخيلوا للحظة واحدة أن ليس للتاريخ معنى. للتاريخ مجرى يسير فيه ويتبعه، لكن لا معنى له. فلنأخذ الإمبراطورية الرومانية على سبيل المثال. لماذا فتحت العالم تاركة بذلك المجال للجرمانيين البرابرة لاحتياجها وهدمها؟ ليس لهذا أي معنى. لماذا شقيت أوروبا لمدة قرون طويلة، من أجل تأسيس حضارة كان واضحًا أنها مهددة بالزوال من الداخل، لأن الأوروبيين متصدعون داخليًا؟ لا يُعتبر أي خطر خارجي جسيمًا، لكن كل الحضارات برمتها ناضجة للاختفاء. هذا هو التاريخ الكوني، في لحظة معينة كل حضارة تنضج للاختفاء .. إذن نتساءل عن معنى هذا المجرى أو السير، لكن لا معنى له. هناك مجرى فحسب[٢].

ج- جينالوجيا التعصب:

ليس من فكرة إلا وهي محايدة أصلاً أو ينبغي لها أن تكون. إلا أن الإنسان ينفخ فيها الروح ويبثها لوثاته ونزواته، فإذا هي، وقد تدنست وتحولت إلى عقيدة (دوجما Dogma)[*]، تتغلغل في الزمن وتتخذ هيئة الحدث. يكتمل العبور من

---

[١] المصدر نفسه، ص ١٧.

[٢] إميل سيوران: تاريخ ويوتوبيا، ص ١١.

[*] إن كلمة دوجما أصلها يوناني وتعني: اعتقاد، يقين، قطع، جزم. ومن ثم فهي اعتقادية، وفي العصور الوسطى كانت تؤكد على عقائد الكنيسة الصارمة التي لا بد من التسليم بها دون التفكير فيها أو حتى مناقشتها. هذا وقد استعملت من عهد كانط لوصف أي قضية أو مذهب فلسفي لم يمهد لهما بدراسة المقدمات التي تستند إليها أي دراسة إبستمولوجية أو منطقية،

المنطق إلى الصراع. هكذا الأيديولوجيات والمهازل الدموية. كما يرى سيوران أن التاريخ ليس سوى موكب مطلقات زائفة، سلسلة معابد منصوبة من أجل ذرائع. حيث تراق الدماء ما أن نرفض الإقرار بأن من طبيعة الأفكار أن يحل بعضها محل بعض. تحت كل قرار حازم يُشهر خنجر، فالعيون الملتهمة تُنذر بالقتل[١].

لا جدوى من تخليك عن هذا المعتقد الديني، أو ذاك المعتقد السياسي، سوف تحافظ على التصلب والتعصب اللذين دفعا بك إلى تبنيه، سوف تظل حانقًا دومًا، أما التعصب فإنه يظل ملتحمًا بجوهرك. وسوف يبقى بصرف النظر عن القناعات التي نستطيع الدفاع عنها أو رفضها. ويؤكد سيوران في شذرة له: آراء، نعم، قناعات، لا. هذه هي نقطة البدء للافتخار الفكري. فقد أوج الليالي، لا أحد غير مجتمع الدقائق، كل دقيقة تتظاهر بمرافقتنا ثم تهرب – فرار يليه فرار[٢]. فمهما هجرت معتقدك الديني أو السياسي، فإنك ستحتفظ بالعناد والتعصب اللذين قاداك إلى اعتناقه. كما أن الأديان شأنها شأن الأيديولوجيات، التي ورثنا عنها رذائلها، لا تلبث أن تنتهي إلى حروب صليبية[٣].

نحن قادرون على اكتناه خطأ كائن ما، وعلى مكاشفة ذلك الكائن ببطلان خططه ومساعيه، لكن كيف نستطيع انتزاعه من عناده في الزمن حين يُخفي تعصبنا لا يقل تأصلاً عن غرائزه ولا يقل تصلبًا عن أحكامه المسبقة. نحن، كما

وبذلك غدت النقدية الكانطية عددًا لدودًا للقطعية. ومن ثم فقد أعطاها كانط دلالة محددة، من ذلك: أنها تشير إلى حالات ميتافيزيقية ليس لها تحليل مسبق لتبريرها على أساس من العقل. وهذا ما وجه إليه كانط ملاحظاته النقدية في الأنساق الميتافيزيقية في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

Dagobert D. Runes: The dictionary of philosophy, 16th edition, John Growther Publishers LTd, Philosophical library, New York, 1942, p.84.

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ص ٧، ٩.

[٢] إميل سيوران: لو كان آدم سعيدًا، ص ص ٣٥ – ٣٧.

[٣] إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ص ص ٩٨، ٢٢.

يرى سيوران، نحمل في داخلنا كومة من المعتقدات واليقينيات المخزية، وكأنها كنز لا يمكن إنكاره. وليس لأحد حتى لمن يفلح في التخلص منها والانتصار عليها، إلا أن يظل، وهو في صحراء بصيرته متعصبًا أيضًا: لنفسه ولكينونته الخاصة[١]. وكأن التعصب والدوجما شيء متأصل في طبيعتنا، حتى ولو كان لكينونتنا، وهذا ما يرفضه سيوران. فهو فيلسوف اللامعنى، الذي لا ينتمي لقيمة، أو لهدف، أو حتى للعالم، إنه فيلسوف العبث الذي يود أن يخرج عن إطار هذا العالم، فلا يصبح منتميًا لأيٍ من قيمه ومعانيه، بل إن كينونته هي اللاكينونة عينها، فهي عبث، ذلك العبث الذي يحتوي على الحرية، حرية كل شيء، ولا شيء في الوقت نفسه.

للحياة إذن عقائد أكثر ثباتًا من اللاهوت، بما أن لكل كينونة جذورها الراسخة في معصومية ينكشف أمامها هذيان الجنون أو الإيمان. لا مناص للريبي نفسه، عاشق شكوكه، من أن يكشف عن متعصب للشكوكية. الإنسان هو الكائن الدوجماطيقي بامتياز، وتترسخ عقائده بقدر ما يكتمها ويجهلها ويعمل بها. فنحن نؤمن بأشياء أكثر بكثير من الاحترازات الدامية. نجوب العالم مدافعين عن أفكارنا بأكثر الوسائل تطرفًا وكأننا قلاع متنقلة لا يمكن اختراقها. كلٌ متحيز من ذاته عقيدة قصوى. وإذا عنَّ لنا أن نحاصر تلك الذات بالشكوك وأن نضعها موضع السؤال فما ذاك إلا على سبيل أناقة الكبرياء المزيفة: الدعوى مربوحة مسبقًا[٢].

إذن الدوجماطيقية قضية زائفة، حتى ولو كنا ندافع فيها عن الذات، إذ إن الذات نفسها تدافع عن نفسها كدوجما أو كمبدأ مزيف.

وفي الوقت نفسه لم يولد بعد ذاك الذي لا يعشق نفسه. فحب الذات شأن كل حي. وإلا فمن أين يجيء الرعب الذي يجتاح أعماق الحياة وسطوحها؟ كلٌ يرى في نفسه النقطة الثابتة الوحيدة في الكون. وإذا مات أحدهم من أجل فكرة

[١] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ١٠٢.

[٢] إميل سيوران: رسالة في التحلل، ص ص ١٠٢، ١٠٣.

فلأنها فكرته، وفكرته هي حياته. ومع هذه الازدواجية من حب الحياة وعشق الذات من ناحية، وحب الدوجما في إثبات هذه الذات من ناحية أخرى، إلا أن سيوران، في كل الأحوال، يرفض هذه الدوجماطيقية، ويرى أنه ليس في وسع أي نقد لأي عقل أن يوقظ الإنسان من "سباته الدوجماطيقي". فقد يخلخل النقد يقينيات هذا العقل الطائشة المغرقة في الفلسفة، وقد يحل بعض القضايا الطبيعية محل الإثباتات الصلبة، لكن كيف يمكنه بطريقة طبيعية أن يهز المخلوق الناعس فوق قاعدته الخاصة دون أن يتسبب في هلاكه؟[١].

د- تقييم لكتابات سيوران وفكره:

لم يكف سيوران عن اجترار نفس القضايا، منذ كتابات الشباب، ولكنه كان في كل مرة يخرج ما يكتب في نكهة متجددة دائمًا، وفي قالب مغاير يتلاءم مع سيكولوجية اللحظة المعيشة وما تمليه عليه. فلم يكتب سوى تنويعات حول نفس المسألة .. لقد ولدتم جزافًا، تلك هي رسالته الأولى والأخيرة لبني نوعه. فقد تمحور فكرة حول حدس واحد، فكرة رمزية واحدة، كررها، طورها، أعاد صياغتها. بحيث لنا أن نختار ما نشاء، لنبدأ من حيث نشاء، فليس هناك تقدم في كتاباته، حيث يحتوي أول كتبه ضمنيًا على كل ما قاله لاحقًا، كالموسيقى تتغير وتيرة تأملاته ولكنها لا تتقدم، تلبس لباسًا مخالفًا فقط، يبقى الهاجس هو هو، فكأنه مخدر بالتحسر على سقوطه في جسده. كل شيء يدور حول الهزيمة، ينطلق منها وإليها يعود[٢].

لئن كانت كتابته ذات رائحة عطرة، يبدو سيوران لأول قراءة موزع يأس ومثبط عزائم بامتياز، ولكن يبقى تشاؤمه ونظيره من أعذب ما يقرأ قارئ، بل يتحول ذلك النظر السوداوي إلى سعادة أدبية فعلية كي لا أبالغ و أقول إنه يدفع قارئه إلى

---

[١] المصدر نفسه، ص ١٠٤.

[٢] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، ص ١٩.

تفاؤل ما. تعطي كلماته الجميلة ضد الحياة "المرة" معنى ما للحياة، رغم أنف قساوة الألفاظ المستعملة[١].

ربما كان خلاص سيوران في تفرده أو في منفاه الميتافيزيقي، فنراه يعبر عن ذلك في شذرة من شذراته: عشت حياتي كلها وأنا أشعر بأنني أبعدت من كل مكاني الحقيقي. لو لم يكن لعبارة "المنفى الميتافيزيقي" أي معنى، فحياتي وحدها تهبها معنى. فأنا غريب في نظر الناس وفي نظر الله وحتى في نظري أنا. ومن هنا يرى سيوران نفسه متشردًا ميتافيزيقيًا. وفي كتابه "اعترافات ولعنات" فكأنه يعترف أنه مارس فضيحة الحياة كغيره وهو مستعد لممارسة فضيحة الموت أيضًا[٢].

هكذا بقي سيوران على شكواه إلى آخر المشوار. وربما تكمن أصالته في هذا المزاج الغاضب والمرح في آن، والذي يُعطي نفسًا غنائية لكتابته، تلك الكتابة ذات الطعم السير–ذاتي، والتي تبقى في غليان دائم، وحبلى بفكر شخصي عميق، ولكن دون بلوغ غاية ما، ودون استسلام نهائي. الشعور بأننا كل شيء والبداهة بأننا لا شيء[٣].

إن سيوران لم يكن إلا سكرتيرًا لأحاسيسه، ولم يبدع شيئًا. ويعترف بأنه ليس عدميًا، ولكن اللاشيء هو برنامج أيضًا. وأنه أمام تفاهة أي رد فعل حيال زلزال الولادة لا نملك سوى رسم ابتسامة باهتة. وقد ركزت الكتب القليلة التي خصصت ابتداء من الثمانينيات في معظمها على أصالة طريقته في الكتابة وتشاؤمه ودعابته السوداء. لم تعره الدراسات الجامعية في فرنسا اهتمامًا إلا مع بداية التسعينيات. حظي باهتمام كبير في بلدان أخرى كثيرة، حيث ترجمت أعماله إلى معظم اللغات ودخلت أعماله إلى برامج معظم الجامعات العالمية. نوقشت

---

[١] المرجع نفسه، ص ٢٧.

[٢] المرجع نفسه، ص ص ٣٧، ٣٨.

[٣] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوارن، ص ٣٨.

حول فلسفته أطروحات كثيرة في إسبانيا وألمانيا وإيطاليا.. أما في فرنسا فلم يكن موضوعًا للبحث الجامعي إلا في عدد محدود من الأطروحات[١].

يرى سيوران في التخلص من الحياة حرمانًا من سعادة السخرية منها. هذا هو الرد الوحيد على من يخبرك بأنه يريد الانتحار. ولئن كانت مؤلفات سيوران تراجيدية، فإنها لم تخلُ من الدعابة، بل نجد فيها من العزاء ما لا نجد في غيرها. شر البلية ما يضحك. فلا شيء مضحك مثل الشقاء. فالسخرية هي الانتصار الحقيقي والوحيد على الحياة والموت. فقد اقتحمت الفكاهة قلعة الفلسفة عن طريق أستاذ من أساتذة المرارة. وهكذا نرى النور، لأول مرة، فلسفة تسمح بالتفكه وخفة الروح دون أن تفقد قوتها الدرامية، ودون أن تكف عن مساءلة الوضع الإنساني لحظة واحدة، فقد جعلت آراؤه الكثيرين يضعون حدًا لحياتهم، ويبتعدون عن فكرة الانتحار[٢].

لا يمكن اعتبار الكتابة المتقطعة الشذرية، على الأقل في حالة سيوران، تشظيًا للفكر، إنها أكثر ملاءمة للذات الكاتبة الحرة، المنعتقة من كل مرجعية، المتحملة لمسؤولية تناقضاتها، والتي لا تستطيع التعبير عن كنهها بأمانة إلا عن طريق الكلمة المقطعية، الوحيدة التي تجيز قول الشيء ونقيضه دون أدنى خوف من السقوط في التناقض. وإذا كانت الشذرة السيورانية لا تهدف إلى أي استنتاج أو إقناع، فإنها تطلق من حين لآخر وميضًا من الصفاء يبدو فيه العالم فاقدًا لكل معنى. وقد بقي سيوران وفيًا لنزعته القلقة الممزقة، محافظًا على نبرته المعتادة وطابعه المميز إلى آخر قطرة من حبره[٣].

---

[١] المرجع نفسه، ص ص ٤٢، ٤٣.

[٢] حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوارن، ص ٦٩.

[٣] المرجع نفسه، ص ص ٤٩، ٥٠.

كانت كتب سيوران تعبيرًا طويل النفس عن تجربة "فشل معلن"، يُمكن أن تُقرأ كرسالة لطيفة مطولة حول طريق الإنسان المسدود ولا جدوى مسعاه في هذا الوجود. فلم تكن عين سيوران الساخرة والقاسية ترى سوى ما كان سلبيًا في الإنسان والمجتمع، فصب جام غضبه عليهما مستعملاً ألذع النعوت، كما يعبر سيوران: كل فكري كان عبارة عن اعترافات مستمرة، ولكنها كانت ذات نكهة فريدة، عنيفة ومتمردة. فقد كانت كتاباته تأملاً حول الأسوأ المظلم، انتفاضة ميتافيزيقية ناتجة عن استياء وجودي عميق من الحياة والموت، ومن وضع الإنسان كنوع، والإنسان المعاصر على الأخص. فالكتابة تحايل على الحياة ومطفأة للغضب[١].

يرى سيوران أن الكتب الوحيدة التي تستحق أن تكتب هي تلك التي يؤلفها أصحابها دون أن يفكروا في القراء ودون أي جدوى أو مردود. حيث تتشكل كتابة سيوران حول وجود الإنسان ذاته، هذا الوجود في العالم، وعبثية الوضع الإنساني وما يترتب من نتائج جراء ذاك العبث. وكما ألمحنا يأتي نتاج سيوران في معظمه على شكل مصنفات شذرية، وذلك في تأملات متقطعة تأتي مرة على صيغة أفكار مبعثرة، وتارة كملاحظات عابرة مصاغة في جمل مقطعية، وأحيانًا خواطر سريعة تتجلى كومضات وعي، ما عليه سوى نقلها على الورق كما هي. إنها رحلة في أعماق الأنا، حيث تصدر الحكم القصيرة السيورانية في أغلب الأحيان عن نوع من الحقيقة الشعرية مرتبطة أشد الارتباط بالإحساس كما هي الحال عند نيتشه[٢].

حقيقة الأمر لا يبتعد سيوران كثيرًا عن حقيقة أمره حينما يكتب، بل إنه يؤكد أن كل الأمور التي تطرق إليها سيوران، وكل ما قاله على مر السنين، يبقى وثيق الصلة بما عاشه، فهو، من ثم، لم يبدع شيئًا. ونتساءل: هل نعدم الحديث

---

[١] المرجع نفسه، ص ص ٥٠، ٥١، ٦١.

[٢] حميد زنار: المعنى والغضب، ص ص ٤٧، ٤٨.

عن وجود نسق سيوراني ما؟ نحن فعلاً أمام أفكار متناقضة. يمكن أن تقرأ في المصنف نفسه، بل في الفصل نفسه شذرتين متعارضتين[١].

[١] المرجع نفسه، ص ٤٩.

نتائج البحث:

١- إن الولادة والحبس صنوان: تبصر النور فترى القيود، ولذا كانت الولادة قيدًا كما يرى سيوران.

٢- يعني العبث عند سيوران: العيش بلا هدف، بلا مبالاة. وأحيانًا يعني العدمية، ولكنها عدمية لا تقيم أخلاقًا أخرى. فأن يولد المرء لا يلبي أي حاجة على الإطلاق. إن الفيلسوف لعلى يقين أنه ولد هكذا صدفة في عالم لا يوليه أدنى اكتراث. ولذا تتمحور فلسفة سيوران حول الإحساس بعدم جدوى الولادة.

٣- إن العزلة لا تعلم كيف يمكن أن تكون وحيدًا، بل كيف تكون المنفرد.

٤- يتناول سيوران في كثير من شذراته العلاقة الوثيقة بين الألم والوعي. فالألم معرفة، لكن ما الفائدة من هذه المعرفة؟ ما جدواها، هل يمكن أن تكون خلاصًا للذات المتألمة أبدًا. يجيب سيوران إنها معاناة أخرى. فالألم جوهر الزمن، والولادة ثقل حمله سيوران كألم فلسفي مركزي طوال حياته، ألم مكتوب، حدد نظرته إلى الدنيا وما فيها. فالألم معرفة ووعي. والوعي هو الذي يسبب الألم، فنحن لا نوجد إلا بقدر ما نتعذب. وكما يعبر سيوران: إنني لا أقاوم العالم، إنني أقاوم قوة أكبر، أقاوم تعبي من العالم. ما أسعده زمنًا لم يكن فيه الكائن قد انحدر بعد إلى وعي ممزق. إن آلام البشر تبدأ مع ولادتهم، ولذا يردد سيوران: لعن الله الجسم الذي وهبني الحياة.

٥- إن الموت نكهة الوجود، وحده يسبغ مذاقًا على اللحظات، وحده يقاوم تفاهتها. نحن مدينون له بكل شيء تقريبًا، هذا الاعتراف بالدَيْن، الذي نزداد إنكارًا له هو أفضل تعزية لنا في الحياة الدنيا.

إن أكثر ما يشغل سيوران هو جدل الموت، فالإنسان هو الطريق الأقصر بين الحياة والموت. يرصد العدم العالم من جميع الزوايا، فلا أمل ولا يأس، كل

شيء متشابه، نموت ونحن نحيا، ونحيا بينما نموت. فالمطلق تزامن: ساعات غسق (أي غياب لنور الحياة بالموت)، دموع، ووحوش، وأزهار. كل شيء يسبح في ثمالة اللاميز. إذن المقصود هو الاحتفاظ بظمأ الحياة عند ساعات الغسق، ظلمة الموت في مقابل انطفاء نور الحياة، فسيوران يبحث عن الحياة في الموت.

ولكن سيوران يفترض حلاً غير واقعي من وجود قبل الوجود، أو حياة قبل الحياة. فما أسعد من لم يولدوا أبدًا، يحملني مجرد تخيل نفسي في وصفهم إلى سعادة لا نظير لها، يا لها من حرية، وما أرحبه من فضاء! كان من الأحسن لي أن أكون كما لو أنني لم أكن، يا ليتني لم أكن أبدًا، عدم الحياة أفضل بكثير من هذه الحياة، وهذا حل خاص جدًا لسيوران، سيوران فقط.

٦- تعني الأبدية عند سيوران: تلاشي الله والإنسان معًا. أما الإله: فليس من وجود إله مطلق، الإله سقوط متعامد على هلعنا. والمسيح هو تسكع الأبدية في الزمن.

٧- تجدر الإشارة إلى أمر فريد لدى سيوران، ألا وهو الارتباط الحميم والوثيق بين فلسفة الرجل ومزاجه، فلا انفصال بين الإنسان والمفكر، وبين مواقفه المتناقضة والمتنافرة أحيانًا وسيرته الذاتية. ففي حالة سيوران يشكل العمل الفكري والمفكر جسمًا واحدًا.

٨- يعنى سيوران بالغنوصية: تلك الأفكار التي تشرط خلاص الإنسان بوجوب عودتها إلى حدودها الطبيعية، من خلال الرجوع إلى هالة الجهل الأولى. إنه غنوصي ذو صفاء ووضوح فكري ينكر الخلاص، ومتصوف ديني يتخلص من الأفكار الماورائية.

٩- يقول سيوران: "أنا بوذي فيما يخص استنطاق الألم، الشيخوخة والموت فقط، والآن حينما يقول بوذا: اقتلوا الرغبات وانتصروا على الذات وأهوائها،

لا أستطيع، إنني أبحث عن العمق حول شخصي، حول أناي، وهذا يتناقض تمامًا مع روح البوذية.

١٠- إن سيوران مثل نيتشه، يعرض أفكاره غير القابلة للحل، بمعنى أنه لا يستطيع أن يقدم حلولاً، إنما هو يعبر عن آلامه نتيجة ولادته في هذه الحياة، آلام مكتوبة تحدد نظرته إلى الدنيا وما فيها من جراء الولادة، وأن الوضع الوجودي الإنساني غير مقبول بالمرة، فلا يجني العبد منها سوى العبث.

١١- لا يؤيد سيوران الانتحار، ويرى أنه لا ينتحر إلا المتفائلون الذين لم يعودوا قادرين على الاستمرار في تفاؤلهم. أما الآخرون فلماذا يكون لهم مبرر الموت وهم لا يملكون مبرر الحياة!

١٢- إن قراءة سيوران تعطي شهية للحياة، إذ تخلق فينا كتبه رغبة كبيرة في البقاء على قيد الحياة، حتى لو كان المرء يمقت الحياة، فذلك لا يمنعه من الاستمتاع بمباهج المرارة. فسيوران عاشق للحياة، حتى لو رأى أن الحياة مرض، فعشقه للحياة يجعله يستطيع تحمل هذا المرض. وكان سيوران يرى أن اليائس من خلاصه يصير عالِم جمال. وأن الموسيقى والشعر في مقابل عبث الحياة. كما أن الضحك هو المبرر الكبير للحياة، حيث يقول سيوران: إنني حتى في أعمق لحظات اليأس كنت قادرًا على الضحك.

١٣- إن هناك في القبول بالكينونة ضربًا من النذالة لا ننجو منه إلا بفضل مكابرتنا وندمنا، وخاصة بفضل الكآبة، وقول نعم للعالم خيانة للكينونة، إننا نتعهد بالوفاء للحياة، رغم الفظاظة الكامنة فينا، وهذا قبول دنيء. ونحن حينما نحيا، إنما نخفي في أنفسنا (لا) أكبر من العالم. وذلك هو سرمد الكآبة. فالكينونة هي الفظاظة، إذ ليس من شيء داخل الإنسان أكثر كينونة وصدقًا من فظاظته الخاصة، منبع كل شيء، منبع كل ما هو حي، حيث تزداد حقارتنا بقدر ما يتوطد وضعنا في الحياة "قاعنا القذر ومرارتنا الحالمة".

أما علاقة الكينونة بالموت، فإن الموت يثير فينا هاجسًا جديدًا، على أن نكون كل شيء ولا شيء: يصاب كل منا "بالكينونة" فيتحمل تبعاتها مثل الدابة، هكذا تتضخم الكراهية في عالم ليس فيه إلا ما يُكرِه، فإذا هي أوسع من العالم، وتتجاوز موضوعها، فإذا هي تلغي نفسها. إن الموت يجعلنا نلهث في الفراغ، جيفًا عمودية يقتصر نشاطها الوحيد على التفكير في أنها قد تكف عن الكينونة. ومن ثم فإن "الكينونة" هي "اللاكينونة"، وذلك اتساقًا مع عبث الحياة عند سيوران.

١٤- من أجل كسب الحرية ينبغي التمرن على أن تكون لاشيئًا، فالجميل في الحرية أنك تتعلق بها في النطاق ذاته الذي تبدو فيه مستحيلة. كما أن الحرية فانية بامتياز، فما أن تنشأ حتى تعلن عن فقدانها في المستقبل.

١٥- عندما سُئل سيوران عن مسألة انتمائه أجاب: أشعر أنني منفصل عن كل البلدان، وعن كل المجموعات، فدائمًا ما كان يقول "أنا متشرد ميتافزيقي".

١٦- يرى سيوران أن الآخرين يسقطون في الزمن، أما هو فقد سقط من الزمن. السقوط الأول: سقوط في الزمن من الأبدية، وما بعد التاريخ هو السقوط الثاني. "إذا كنت لا أحس بالزمن، إذا كنت بعيدًا عنه أكثر من أيٍ كان، فأنا في المقابل أعرفه. إنني أتأمله باستمرار. إنه يشغل مركز وعيي". كما يقول: "ارحموا من كان في الزمن ولم يعد قادرًا على أن يكون فيه".

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر الأجنبية:

- Albert Camus: The Myth of Sisyphus and other essays, trans by: Justino'Brien (New York, Alfred A Kuoff, 1995) Art in philosophy the Big questions, Edit by: Ruth J. Sample Charles W., Mills and Sames P. Streba, Blackwell Publishing, U. S. A., 2004,
- Fredrich Nietzsche: The Dionysiam Vision, on the world, Trans by: Irarj, Allen. Introduction by Fredric ulfers, Univocal, Congress, 2013.

ثانيًا- المراجع الأجنبية:

- Andrew Vincent, Wiley Blackwell: Modern political ideologies, third edition, 2010.
- Charles Blattberg: Political philosophies and political ideologies, Universitê de Montréal, London, Bloomsbury, 6th ed, 2013.
- Edward G. Carmines and Nicholes J. D. Amico, Political ideologies, India University, 2014.
- Felicia Pratto and Foued Bou Zeineddine: Political and the psychology of power, multi-level dynamics in the (Im) Balances of Human Needs and survival, 2015.
- James Alexander: The major ideologies of liberalism, socialism and conservatism. Political Studies Association, Bilkent University, 2014.
- Johanna sells Roney: The spiritual of Labour, Simon Weil's quest for transcendence, institute of christain studies, Toronto, ontaria, Granada, 1983.
- M. Philip: Ideologies, Meaning, Basic, features, Mahtame Gandi Central, University Bihar, 2023.
- Michael Allen Gillespie: Toward a new Aristocracy: Nietzsche Contra Plato on the Role of Warrior Elite, Art in Jeffrey Metzger: Nietzsche, Nihilism and Philosophy on Future, 2009.
- Persons, S.: Social: Social Darwinism, selected essays of William Graham Sumner, Prentice Hall INC, Englewood Cliffs, N. J., 1963.
- Peter Salmon: Simon Weil was a saints of the social movement. Jacobin, 2023.
- Pope John Paul: The Notion of Absurdity and meaning of life in Albert Camus Existentialism, Major seminary Okpuno, Anambra,

Nigeria, Nnamdi Zaikiew University, Awka, Nigeria, Open Journal of Philosophy, Scientific Research publishing, 2020.

- Sian Miels: Simon Weil, An Anthology. Penguin Classics Books, 2005.
- Teun A. Van Dijk: Ideology, A multi disciplinary approach, SAGE publications, London, Thousand Oaks, New Delhi, 1998.
- Thomas Nagel: The Absurd. The Journal of Philosophy, Vol. 68, American Philosophical Association, 2012.
- Vanessa Lemm: Nietzsche and Becoming life, John D. Caputo, series editor, perspectivness in continental philosophy, Fordam University Press, New York, 2015.

ثالثًا– الموسوعات الأجنبية:

- Encyclopedia of Philosophy, Paul Edward, Editor in Chief, London, New York, 1960. Vol (2) Art: Albert Cammus

Vol (4) Art: Ideology.

رابعًا– القواميس الأجنبية:

- Dagobert, D. Runes: The Dictionary of philosophy, John Growther Publishers, Ltd, philosophical library, New York, 1942.

خامسًا– المصادر الأجنبية المترجمة للعربية:

- إميل سيوران: اعترافات ولعنات، ترجمة: آدم فتحي، بيروت – بغداد، ط١، ٢٠١٨م.
- ––––––: المياه كلها بلون الغرق، ترجمة: آدم فتحي، منشورات الجمل، كولونيا – ألمانيا، ٢٠٠٣.
- ––––––: تاريخ ويوتوبيا، ترجمة: آدم فتحي، بيروت – بغداد، ط١، ٢٠١٠.
- ––––––: دموع وقديسون، ترجمة: عبد الوهاب ملوح، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٠.

- --------: رسالة في التحلل، ترجمة آدم فتحي، منشورات الجمل ، بيروت- بغداد، ط٢، ٢٠٢١م.
- --------: على مرتفعات اليأس، ترجمة: عبد الوهاب الملوح، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٠م.
- --------: غسق الأفكار، ترجمة: عبد الوهاب ملوح، صفحة سبعة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٠م.
- --------: لو كان آدم سعيدًا، ترجمة وتقديم: محمد علي اليوسفي، وقفية الأمير غازي للفكر القرآني، ١٩٩٧م.
- --------: مثالب الولادة، ترجمة: آدم فتحي، منشورات الجمل، بغداد، ٢٠١٥.

سادسًا- المراجع العربية:

- حميد زنار: المعنى والغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، الجزائر، ط١، ٢٠٠٩م.
- عبد الوهاب المسيري: الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، تقديم: محمد حسنين هيكل، د ار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧م.
- محمد جلوب الفرحان: سيمون فايل، الفيلسوفة الفرنسية الفيمنستية في القرن العشرين، مجلة أوراق فلسفية، مركز دريد الفرحان للأبحاث والدراسات الأكاديمية، العدد ٤٥، مارس ٢٠١٩م.